مطبوعات مكتبة مصر

برق فى السحاب

رواية بقلم

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

استيقظ الصباح فى قرية الحمايدة ليجد بيت الحاج حامد بركات قد صحا من نومه ، وراح الحاج يتوضأ ليصلى الفجر ، وراحت الحاجة توحيدة تعد الإفطار لزوجها بعد أن أدت الفريضة .

وجلس الحاج حامد بركات بعد أن تناول إفطاره يشرب القهوة السادة ، وجلست إلى جانبه الحاجة توحيدة ، وسألها :

ــ هل صحا هارون ؟

ــ طبعا لا . هو كما تعلم يصحو فى السابعة كأنه يصحو على منبه .

ــ ربنا يكون فى عونه .

ــ حملته العبء من أول شبابه .

ــ أنا تعبت ! والديون تكاثرت على ولا أستطيع أن أكافح كما كنت أفعل فى شبابى ، وهو رفض أن يذهب إلى الجامعة ، وأصر

على أن يعمل فى الأرض بعد أن نال البكالوريا .

ـــ هو يحب الأرض من طفولته .

ـــ كان يصحو معى فى الفجر ليذهب إلى الغيط .

ـــ وهل أنسى ؟

ـــ وكان يصلى الفجر معى ، وكأنه يؤدى حركات مفروضة عليه .

ـــ وهو الآن لا يصلى .

ـــ لم أستطع أن أرغمه على الصلاة .

ـــ الصلاة لا تكون بالإرغام يا حاج . قلب الإنسان هو الذى يحتم عليه الصلاة .

ـــ أنا اعتقادى أن الصلة بين العبد وربه لا يجوز أن يتدخل فيها أحد .. حتى ولا الآباء والأمهات .

ـــ صدقت .

ـــ كل ما علينا نحن الآباء أن نعلم أطفالنا الصلاة ، ونحثهم على قراءة القرآن دون أن نرغمهم على ذلك ، لأن الإرغام سيجعلهم يبتعدون عن الصلاة والقرآن جميعا .

ـــ لك حق ، ولكن وهم أطفال لا بد أن نرشدهم .

— طبعا ، ونكافئهم أيضا .. حتى إذا بلغوا مبلغ الشباب تركناهم يواجهون الله وحدهم . وإنك لن تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء .

— مع ذلك كنت أتمنى أن يصلى هارون ، كما أتمنى أن يتزوج .

— وأنا أيضا أتمنى هذا ، ولكن هارون مشغول بالدنيا شغلا يجعله لا يفكر فى الآخرة أبدا ، ولا فى الزواج .

— نعم يا حبة عينى مشغول بالدنيا أكثر من اللازم .

— ولهذا تركت له كل شيء ، وأنا يكفينى أن يوفر لى أنا وأنت اللقمة وفنجان القهوة .

— وأنا وأنت لا يلزمنا شيء أكثر من هذا . ولكن يتهيأ لى أن فكرة الزواج تراوده الآن .

* * *

صحا هارون من نومه فى الساعة السابعة ، وتناول إفطاره ومر على أبيه .

— صباح الخير يا أبويا .

— صباح الخير يا بنى .

— أستأذنك .

ــ إلى أين يا ابنى ؟ الساعة لم تصل إلى الثامنة .

ــ ذاهب إلى بنك التسليف .

ــ خير ؟

ــ حضرتك تعلم أن الشغل فيه لا ينتهى . ندير ديونا ونؤجل ديونا ونأخذ السلف .

ــ طبعا .

ــ اليوم أريد أن أحصل على تقاوى القمح .

ــ أليس الوقت مبكرا ؟

ــ لقد جاءت إلى البنك ، وأفضل أن أحصل عليها مبكرا حتى تكون جاهزة .

ــ مع السلامة .. الله يوفقك .

وحين ذهب هارون إلى البنك أحس من الإقبال الشديد على التقاوى أنها ستكون قليلة هذا العام ، وأن الفلاحين سيضطرون أن يشتروها من السوق السوداء عند زراعة القمح وترقيع الأرض ، أى إعادة زراعة أجزاء الأرض التى لم تنبت ما بذر فيها فى أول مرة .

وبمكر اقتصادى لا مثيل له يتمتع به هارون ، كتب إقرارا أنه

سيزرع أربعين فدانا من القمح ، مع أنه لم يكن أعد من الأرض إلا عشرين فدانا فقط لزراعة القمح . وبقدرة فائقة على الصداقات والاتصالات استطاع أن يحصل على التقاوى التى يريدها ، وهو ينوى أن يبذر نصفها فقط ويبقى النصف الآخر ليبيعه بأغلى الأثمان . فهو يعلم أن الفلاح عند الحاجة إلى زراعة الأرض يدفع عمره ليحصل على التقاوى التى يحتاج إليها .

وهارون لا يعنيه فى شىء أن يرفق بالناس ، وإنما يعنيه أولا وأخيرا أن يحصل على المكاسب من أى سبيل ، مهما يكن فى هذا السبيل عنت بالآخرين وإثقال على مقدراتهم .

كان جالسا إلى مدير البنك ليكمل إجراآت صرف الكيماوى ، حين دخل الحجرة سعدون عمارة ، وهو رجل طويل القامة ضخم الجسم يعرفه هارون ويعرف هارون ، ولكنها معرفة لا ترقى إلى مستوى الصداقة ففارق السن بينهما ليس هينا . ولكن هارون ـ شأن أعيان الريف جميعا ـ يعرف كل شىء عن كل إنسان فى المنطقة وما حولها ، وقد كان يتوق إلى لقاء سعدون وكان يريد أن يأتى هذا اللقاء صدفة دون إعداد سابق .

وقد كان سعدون أغلب وقته مقيما بالقاهرة بعيدا عن أرضه ،

ولهذا لم يكن إنتاج أرضه إنتاجا يرضى عنه الفلاح الخبير .

استقبل هارون القادم عليه فى غرفة مدير البنك بترحـاب شديد .

ــ مرحبا سعدون بك ، عاش من شافك .

ــ أهلا هارون بك ، ماذا أعمل ؟ أنا قليل المجىء إلى العزبة كما تعرف .

ــ أعرف .. هل جئت اليوم وحدك أم جاءت معك العائلة ؟

ــ لا والله جئت وحدى ، فلن أبقى هنا أكثر من ليلة واحدة .

ــ إذن فالغداء عندى اليوم .

ــ يا سيدى حفظك الله .

ــ لا والله لن أقبل عذرا ، والبك مدير البنك سيشفع لى عندك .

وقال مدير البنك محروس مهنا :

ــ ولماذا أشفع وأنت لم تدعنى معه ؟

وقال هارون :

ــ أخاف إن دعوتك أن أغضب السيدة حرمك ، فأنا أعرف أن أولادك فى القاهرة وزوجتك معك ، وأنك إذا تـركتها

فستتغدى وحدها .

وقال محروس :

ـــ لكم أخاف منك يا هارون بك . ليس شيء فى بيوتنا إلا وأنت مطلع عليه .

ـــ ليس فى الأرياف سر .

ـــ ولكنى أعيش هنا فى المدينة فى الزقازيق ، فكيف تعرف أخبارى كلها ؟

ـــ أولاد الحلال كثيرون ، والناس ليس لهم تسلية إلا أخبار الناس .

ـــ ترى يا هارون بك هل تعرف ما يدور فى البيوت فقط ، أم تعرف أخبارنا فى حجرات النوم أيضا ؟

ـــ ليس فى حجرات النوم أسرار تستحق الذكر يا محروس .

ـــ يعنى تعرف هذا أيضا ؟ ربنا ينجينا منك يا هارون بك .

والتفت هارون إلى سعدون وهو يقول له :

ـــ هيه يا سعدون بك ، الغدا عندى أم أذيع أسرارك ؟

وقهقه سعدون عمارة وهو يقول :

ـــ المسألة أصبحت تهديدا إذن ؟

وقال محروس :

ــ تهديد واضح ؟

ــ نعم تهديد .. ما رأيك ؟

وقال محروس :

ــ وما الداعى للتهديد ؟ .. لا ياعم .. الغدا أهون .

وأكمل هارون عمله مع محروس ، وذكر سعدون ما جاء فيه وأنهى هو أيضا موضوع التقاوى الذى كان قادما من أجله وصحب هارون سعدون إلى البيت . وسرعان ما أعطى أوامره بإعداد غداء يليق بالموضوع الذى دعا من أجله سعدون إلى الغداء .

* * *

تناولا الغداء فى حجرة المائدة وانتقلا إلى غرفة الاستقبال . وكان بيت الحاج حامد ذا طابقين ، فالطابق الأول خالص للاستقبال تقريبا ، والطابق الأعلى مخصص للنوم .

قال هارون :

ــ هل تحب أن تنام قليلا ، أم لست متعودا على نوم القيلولة .

ــ ليس دائما .

ـــ أما أنا فأحب أن أنام .

ـــ وهو كذلك .. تفضل !

وصحبه إلى غرفة خاصة لنوم الضيوف فى مثل هذه الحالات ، واطمأن إلى صلاحية الغرفة للنوم وأقفل بابها عليه وذهب إلى أريكة بحجرة الجلوس واتكأ عليها . وغفت عيناه وأحلام سعيدة تداعب جفنيه .

* * *

حين صحا سعدون من النوم جلس إلى هارون فى حجرة الاستقبال يحتسيان القهوة ، وقال هارون :

ـــ ما رأيك يا سعدون بك ، عندى لك مشروع يفرحك .

ـــ ياليت .. قل ما هو .

ـــ أنت أغلب الوقت بعيد عن البلد ، وأرضك حوالى سبعين فدانا ليس فيها أرض مؤجرة لفلاحين .

ـــ عندك أخبارى كلها ، كيف عرفت أنها سبعون فدانا مع أن المسجل منها خمسون فقط .

ــ أتحب أن أذكر لك أسماء الأربعة الذين بعت لهم العشرين فدانا الأخرى بيعا صوريا ؟

ــ لا .. لا داعى ، واضح أنك تعرف كل شيء عنى

ــ أنت لست هاويا للفلاحة ، والبنتان عندك لا تحبان الريف .. وأنت تحب أن تقضى وقتا مع الأصدقاء ، والزراعة عندك الآن لا تأتى بهمها .

ــ والله لك حق ..

ــ كم تكسب من الأرض الآن ؟

ــ حوالى ألفى جنيه فى السنة .

ــ هذا ما قدرته فعلا .

ــ أنت وضعت يدك على حقيقتى ، أنا لست فلاحا ماهرا ولا محاسبا ماهرا ، وأعلن أننى مسروق فى كل شيء سواء فيما أنفق على الزراعة أو ما أحصل عليه من محصول الأرض على السواء

ــ ما رأيك لو أعطيتك ثلاثة آلاف جنيه فى السنة ، تأخذها دفعة واحدة كل عام فى شهر نوفمبر .

وصمت سعدون قليلا ثم قال :

ــ أحيانا أحب أن أجيء إلى البلدة ومعى أسرتى .

ـــ سبحان الله ! أنا أستاجر الأرض لا أشتريها . وبيتك لا يلزمنى .. تعال أنت وأسرتك كلما شئت .

ـــ على بركة الله .

ـــ نكتب عقدا .

ـــ عقد إيجار ؟

ـــ عقد توكيل بإدارة الأرض ، وعندما أسلمك المبلغ تكتب لى إيصالا به .

ـــ توكلنا على الله .

ـــ توكلنا على الله .

* * *

٢

حين عاد سعدون إلى بيته ، استقبلته زوجته وفيّة الزهار التى تزوجها منذ خمسة وعشرين عاما زواجا نمطيا . فقد كان والده عبد الهادى بك عمارة صديقا لوالدها عثمان بك الزهار ، وكانا متجاروين فى الأرض ، وكانا يقيمان شأن ذلك الزمان بالريف أغلب الوقت فكانا يسهران معا فى بيت أحدهما يلعبان النرد ويلتقيان بالناس . وكان كل منهما يعرف أصدقاء الآخر معرفته بأصدقائه وبفلاحى أرضه هو . فكان عبد الهادى دائما يلتقى فى مجلس عثمان الزهار باثنين لا يغيبان عن مجالسته ، أحدهما عطا الله عبد السيد وهو تاجر أقطان صغير يعمل فى كميات قليلة من القطن دون توسع فى البيع أو الشراء ، ولكنه كان ميسورا كريما على نفسه حسن المظهر دائما ، وكان يلبس الجلباب البلدى الأنيق ، فإن كان الشتاء يلبس معطفا من الصوف الجيد . وكان يجيد الحديث عالما بأسرار المنطقة ، وكان عبد الهادى يسمع منه

دائما أخبارا جديدة . وكان لبيبا فى تعليقاته ذكيا كل الذكاء فى تفهمه لما يسمع . وكان يقرأ الجرائد بدقة شأن التجار ليتقصى أخبار السياسة صاحبة العامل الأول فى أسعار التجارة وخاصة القطن .

أما الرجل الثانى فقد كان الحاج وافى العسكرى ، وليس اسم العسكرى دليلا على أنه كان يعمل فى الجيش أو الشرطة ، وإنما هو اسم وجده لنفسه وعرفت به أسرته دون أن يكون له معنى أو أصل تاريخى . وقد كان الحاج وافى من أعيان بلدة التمايلة التى بها أرض عثمان بك الزهار وبيته . وكان الحاج وافى يعمل فى تجارة الغلال ، وكان يأبى أن يشترى أرضا لتظل أمواله كلها سائلة حرة يشترى بها ما يتاح له من صفقات . وكانت محاوراته مع عطا الله أفندى تضفى على الجلسة نسمات رطيبة من الضحك وخفة الروح . وقد كان أيضا على صلات كثيرة بالناس شأنه شأن عطا الله أفندى وكان يعرف خباياهم . ولم يكن له إلا ولد واحد وكان هذا يسعده على عكس ما عرف عن أعيان الريف من حبهم لكثرة الأبناء ، فى حين كان لعطا الله أربعة أبناء كلهم ذكور .

وكان عثمان بك إذا زار عبد الهادى بك وجد عنده دائما ناظر زراعته إبراهيم أفندى جندية ، ولم يكن أفنديا كامل الأفندية وإنما

كان يلبس مثل عطا الله عبد السيد الجلباب البلدى والطربوش . وبالطربوش وحده اكتسب لقب أفندى كما اكتسبه أيضا بخبرته الدقيقة بالحساب والدوبيا . والدوبيا هذه لفظة لا يعرفها أبناء الجيل الجديد .. إنها طريقة خاصة للحسابات أغلب الأمر كانت تتم بها محاسبات الزراعة .

وكان إبراهيم رجلا أمينا غاية الأمانة لا عيب فيه إلا ادعاءه لنفسه من الأعمال الجلائل ما لم يقم به ، ولكن هذا فى ذاته كان يضفى على حديثه ظرفا يتيح لعبد الهادى بك وجلسائه أن يتفكهوا به ويتندروا عليه . فكأن يقبل دعاباتهم فى سماحة ، ويمضى فى حديثه عن أعماله الجليلة وكأن أحدا لم يقل شيئا أو يسخر مما يقول .

وكان من جلسائه الشيخ متولى عبد الموجود ، وكان فلاحا حاذقا فى الفلاحة ويحفظ القرآن وإن كان لا يلبس العمامة ، وكان لا يملك إلا فدانين يحصل منهما على محصول لا تنتجه خمسة أفدنة ، وكان عبد الهادى يغدق عليه الهدايا ، وكان هو محبا أشد الحب لعبد الهادى بك .

وكان فى مجلس عثمان أيضا شخص آخر يجده عبد الهادى كلما

زاره ، وهو بلال أفندى عبد الفتاح . وكان مدرسا فى المدارس الإلزامية ومحبا للشعر يحفظ منه الكثير وينظم منه القليل . وكان عبد الهادى وعثمان يأنسان إلى حديثه سواء كان راويا للشعر أو ناظما له . وكان لماح الذهن حاضر البديهة يملك أربعة أفدنة ، وكانت مع مرتبه تجعل منه واحدا من أغنياء القرية ، خاصة وأنه كان شديد البخل إلا فى ملبسه الذى كان دائما أنيقا . وكانت الصداقة بين عثمان وعبد الهادى وطيدة ، ولهذا لم يكن غريبا أن يتزوج سعدون وفيّة . ولم يلاق عبد الهادى بك من ابنه أى ممانعة . فلم يكن سعدون يعرف فتاة أخرى ، وكانت الفتيات عنده كلهن متساويات لا فارق ثمة بين فتاة وفتاة ، وكل ما فعله أنه سأل أباه عنها :

— شفتها يا ابويا ؟

— طبعا شفتها .

— حلوة ؟

— قمر .

— توكل على الله .

ولم تكن وفيه قمرا ولكنها أيضا لم تكن قبيحة . كانت فتاة

كأى فتاة لا تجتذب عينيك إذا رأيتها ، وهى أيضا لا تجعل عينيك تنصرفان عنها . كانت بيضاء البشرة ذات شعر أسود لا هو بالمسترسل ولا هو أيضا بالملبد ، ذات عينين سوداوين فى غير ضيق ولا اتساع .. تلقت تعليمها فى المدارس حتى بلغت السنة الثانية من الثانوى ، ثم ضاقت بالتعليم أو ضاق بها التعليم فأقامت فى بيت أبيها تنتظر العدل .

وتزوجت سعدون ، وكان سعدون أيضا قد ترك التعليم بعد حصوله على البكالوريا التى تقلبت عليها الأسماء فأصبحت توجيهية ثم أصبحت ثانوية عامة .

ولم يكن سعدون راغبا فى إكمال تعليمه ولا كان أبوه مهتما بذلك أيضا ، راجيا أن يتفرغ سعدون لفلاحة الأرض .

ولكن سعدون لم يكن يهوى الفلاحة ، فما لبث بعد زواجه بسنة وبضعة أشهر أن أقام فى بيت أبيه فى القاهرة فى حى جاردن سيتى . ولم يكن البيت فخما ولا كان متواضعا وإنما وسط بين هذا وذاك ، ولم يكن أبوه راضيا عن ذلك ، ثم احتسب الله : ربما بعد أن أموت أنا يضطر سعدون إلى فلاحة الأرض ، فليس له مورد رزق حقيقى إلا هى وعمارة الزمالك وعمارة عابدين ،

وهما عمارتان قد يمتان ما يلبثان أن يهدما ويجد سعدون نفسه وجها لوجه مع الأرض . وماذا سيفعل فى أرض زوجته ؟ إنها ستترث أيضا .. اتركها لله كله بأمره .

تعود سعدون منذ ذهب إلى القاهرة أن يجلس فى بار الأنجلو الذى يضم كثيرين من الأعيان ، وكان البار فى الصباح مقهى وفى الليل بار .

وأصبح سعدون زبونا دائما له فى الليل ، أما فى الصباح فهو يعكف فى البيت على القراءة فكان يقرأ بنهم شديد وبمتعة لا مثيل لها .. ووجد نفسه فى جلسة المساء جالسا إلى قوم لا همّ لهم إلا شرب الخمر وتبادل الحديث المخمور ، فكان لا بد له أن يشاربهم . وأعجبته نشوة الخمر فصار يشرب حتى إذا مرت به وفّية آخر الليل لتصحبه إلى البيت وجدته فى حالة سكر بيّن . وضاقت بهذه الكارثة ولكنها مالبثت أن راضت نفسها على قبول الأمر الواقع ، فلم يكن لها حيلة إلا أن تقبل الأمر الواقع .

وأحب سعدون الخمر وفتن بمجالسة المخمورين ، وتعود كلما جاء السائق ليدعوه للقيام ويبلغه أن الست تنتظره يقول له :

— يا مغفل ابحث عنى بعض الوقت ، هل لا بد أن تجدنى بهذه

السرعة ؟

ويتابع الشرب ، ويظل السائق رائحا غاديا بينه وبين وفيّة حتى يقوم كارها .

و لم تمض سنة على مجيئه إلى القاهرة حتى حملت وفيّة طفلتها الأولى حميدة ، و لم يمض أكثر من عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابنتهما الثانية وجيدة . و لم يكن سعدون يهمه أن ينجب البنين أو البنات فقد أصبح لا يعنيه من الحياة إلا الكأس والقراءة التى يتفرغ لها نهاره كله . و لم يكن أمر سعدون خافيـا على هارون ، ولكنه أبى أن يذكر له وهو يفاوضه فى الأرض معرفته بحبه لبار الأنجلو وما يشربه فيه .

كانت حميدة فى العشرين من عمرها حين تمت الصفقه بين هارون وسعدون .

وكان سعدون إذا لم يكن مخمورا غاية فى التعقل والاتزان ، وكانت الخمر تخرجه عن وقاره بعض الشىء ولكنه لم يكن يخرج عن أدبه قط ، وكان يستطيع أن يتحكم فى ألفاظه . وكان ذكيا فى سكره ، فإذا أراد أن يصارح أحد أصدقائه برأى لاذع فيه ، ادعى أنه سكران وقال ما يريد قوله .

لهم صديق اسمه عيسى حامد ثرى غاية الثراء بخيل كزّ غاية البخل والكزازة ، ويتمتع شأن كل بخيل بصفاقة يشهد له بها جميع رواد المقهى . يأتى فى كل ليلة ويمر على المناضد واحدة بعد أخرى ، وتدعوه كل منضدة إلى كأس أو كأسين يشربه أو يشربهما وينتقل إلى منضدة أخرى ، فما إن تنتهى دورته على المناضد حتى يكون قد نال من الويسكى كفايته دون أن ينفق مليما واحدا . وفى ليلة مر كعادته بمنضدة سعدون وكان لسان سعدون قد بدأ يلتوى من الخمر فيبدو كأن الويسكى قد تعتعه فنادى بأعلى صوته :

ـــ مانولى !

فجاء القاهى :

ـــ أفندم سعادة البك ؟

ـــ حسابنا كله الليلة عند عيسى بك حامد .

وزلزل عيسى زلزالا شديدا :

ـــ ماذا ؟

ـــ أى ماذا يا أخى . أنت كل يوم تأتى إلى المقهى وتسكر مجانا وتروح .

ادفع مرة الحساب عن نفسك ، ألا تحب أن تشعر مرة بلذة السكر على نفقتك الخاصة ؟

ــ ولكن هذا ظلم يا سعدون بك .

ــ الظلم ما أفعله أنا بك أم ما تعمله أنت فى زبائن المقهى كل ليلة ؟ .. خف ولا تثقل حتى لا يضيق بك أصحابك ورفاق كأسك .

وهكذا كان يفعل سعدون كلما عن له أن يصارح أحد الجالسين معه برأيه فيه ، فكان أصدقاؤه يحبون مجالسته كل الحب ويضحكون مما يفعله ويقوله .

وقد ارتاح سعدون كل الارتياح للصفقة التى أتمها مع هارون ، وحين عاد إلى زوجته بعد إتمام الصفقة أخبرها بها فإذا هى تقول :

ــ مبروك يا سعدون ولكن لماذا نسيتنى ؟

ــ كيف ؟

ــ أرضى .

ــ أليست أرضك مع عطا الله أفندى والحاج وافى ؟

ــ إنها معهما بناء على عقد بيع صورى ، ولا أحصل منهما إلا

على مبالغ ضئيلة . فلم لا تؤجر الأرض لهارون ويدفع لى مثلما يدفع له ؟

ـــ والله فكرة .

* * *

كان عثمان الزهار يدرك أن ليس له إلا بنت واحدة ، وكان يملك مائة فدان لو مات عنها ما ورثت ابنته إلا نصف الأرض ويشاركها أخوه مجدى وأخته تفيدة فى النصف الآخر . فتشاور مع زوجته بهيّة على أن يبيع أرضه مناصفة لعطا الله أفندى وللحاج وافى ، ويكتب كل منهما على نفسه وصل أمانة بقيمة الأرض واستحسنت بهيّة الفكرة ونفذها عثمان فعلا وسجل الأرض ، ولم يمر على تسجيل الأرض سنة حتى كان عثمان قد انتقل إلى رحمة الله قبل أن يشهد ثورة ٥٢ .

* * *

أما عبد الهادى فقد شهد ثورة ٥٢ ولحق به قانون الإصلاح الزراعى الأول . وكان يملك سبعين فدانا فلم يكن واقعا تحت طائلة القانون .. ولكنه أدرك بإلهام لا يدرى مأتاه أن الأمر لن يقف بالثورة عند هذا فقال لابنه سعدون :

— أرى ألا نبقى لك أكثر من خمسين فدانا .

— تريد أن تبيع عشرين فدانا ؟

— نبيعها ولا نبيعها .

— يجب أن تكون واثقا من المشترين .

— لقد فكرت فيهم فعلا .

— إبراهيم أفندى جنديه ومن ؟

— أنا لا أريد أن أبيع للشخص الواحد أكثر من خمسة أفدنة .

— كلام معقول .

— طبعا سأبيع خمسة أفدنة لوالى قطب .

— طبعا هذا واحد منا .

— وما رأيك فى الاثنين الآخرين ؟

— موجودان .

— من ؟

— ما رأيك فى الشيخ متولى وبلال أفندى ؟

— ونعم .

— على بركة الله .

— على بركة الله .

وتم البيع الصورى لكل هؤلاء فعلا ، ولكن استمر عبد الهادى يزرع حتى توفى . وحين ورث سعدون الأرض ظل الأمر على ما كان أيام أبيه . ولم يجد هارون أية صعوبة فى تسلم الأفدنة السبعين كاملة بما فيها العشرون فدانا المبيعة بيعا صوريا .

* * *

أما الحاج حامد بركات والد هارون فكان لا يملك إلا بيتا فى عابدين وأربعين فدانا ، وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى الأول باع أرضه كلها لابنه هارون حتى يعفيه من ضريبة التركات . وكان هارون فى ذلك الحين قد ترك الدراسة وبقى فى الأرض يفلحها ويحاول أن يسدد الديون المتراكمة عليها لبنك التسليف . ولم يكن الأمر سهلا ولكنه بذكائه الشديد استطاع أن يجعل أموره تسير . وكان هارون فى ذلك الحين فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولكن درايته بإدارة السلفيات وتأجيلها والحصول على سلفة جديدة لتسديد سلفة قديمة حل موعدها ، كانت دراية واسعة مكنته ومكنت أباه وأمه أن يعيشوا عيشة

ميسرة . وحين تمكن من عقد صفقته مع سعدون أحس أنه على أبواب الغنى الذى يسعى له سعيا حثيثا لا يرده عنه شيء ولا يقف فى سبيل وصوله إليه حائل ، مهما يكن هذا الحائل متصلا بالنزاهة أو غيرها .

* * *

٣

دق جرس التليفون فى بيت الحاج حامد بـركات وكان المتحدث سعدون عبد الهادى ، وسأل عن هارون . وأمسك هارون سماعة التليفون ليسمع صوت سعدون .

ـــ كيف أنت يا هارون بك ؟

ـــ مرحبا .

ـــ هل تنوى المجىء إلى القاهرة قريبا ؟

ـــ أنا تحت أمرك .

ـــ أريد أن اراك فى أمر يهمك .

ـــ أجىء إليك باكر إن شاء الله .

ـــ نتغدى معا .

ـــ وهو كذلك .

* * *

على الغداء كانت المائدة معدة إعدادا أنيقا ، وتحلق حولها أسرة

سعدون وفيّة هانم وحميدة ووجيدة .

كان هارون يفكر تفكيرا جادا فى الزواج .

وكان يعرف أن لسعدون بنتين ، ولكنه لم يكن رآهما من قبل .

وكانت حميدة مقبولة السمات لا هى بالجميلة الباذخة الجمال ، ولا هى أيضا على شىء مما يعاب فى وجوه الفتيات .. وكذلك كانت أختها . إلا أن حميدة كانت ذات شعر أسود داكن منساب تجيد التعامل معه وتجعل منه وسيلة من الوسائل التى يكسب بها الفتيات وجوههن جمالا ورقة وعذوبة . وقد كانت حميدة وادعة فيها طيبة وهدوء طبع كما كانت أختها كذلك ، وربما كان لشعور الفتاتين بما يدمنه أبوهما من شرب الخمر أثر فى جعلهما تشعران ببعض الأسى الذى يلون هذا الهدوء ، ويجعل فيه رضا بما قسمه الله لهما .

وإن لهارون عينا نافذة ظلت تنتقل بين الفتاتين فى ذكاء ودهاء ، حريصا دائما ألا يشعر الوالدان أو الفتاتان أنه ينعم النظر فيهما .

كان هارون فتى أقرب إلى الطول منه إلى القصر ، وكان شعر

رأسه مرجلا و لم يكن بالشعر الكث ، واسع الجبهة ضامر الخدين له ذقن مدبب وأنف ووجه أقرب إلى الطول منه إلى الاستدارة . وكان من أولئك الناس الذين يستطيعون أن ينفذوا إلى الذين يلاقونهم بابتسامة ثابتة لا تترك فمه ، ومع ذلك يستطيع أن يشيع فيها الحياة بما له من موهبة قادرة على إرضاء جميع الناس ، والتلطف فى الحديث إليهم ، ومعرفة مواضيع الحوار القريبة إلى نفوسهم .. بل وبمقدرة فائقة على الوصول فى لمحة خاطفة إلى المكامن الخفية فى نفوس محدثيه التى تجعلهم سعداء راضين عن أنفسهم وعنه كل الرضاء .

وانتهى الغداء وانصرفت الفتاتان وخلا المكان بهارون وسعدون ووفيّه هانم .

ونظر سعدون إلى زوجته وقال :

ــ تتكلمين أنت أم أتكلم أنا ؟

وفى ذكاء لماح قال هارون :

ــ إن كان لى رأى ، أنا أرى أن صوت السيدات أجمل بكثير من صوت الرجال .

وقال سعدون مستجيبا لتظرف هارون :

— إذن قضى الأمر ، تكلمى يا ستى .

وقالت وفيّة على استحياء :

— يعنى يا هارون بك تأخذ أرض زوجى وتترك أرضى ؟

— والله أحببت أن أجرب الأمر فى أرض سعدون بك أولا .

— ولماذا لا تجرب فى أرضنا معا .

— أنا أعرف أن عطا الله أفندى والحاج وافى يزرعان الأرض ويقدمان ريعها كاملا إليك .

— الحقيقة أنا لا أشكو منهما شيئا فكلاهما رجل أمين ، ولكنهما يزرعان الأرض زراعة تقليدية ، وطبعا كثر خيرهما فهما لا يكسبان منى شيئا إنما شعورهما أنهما ليسا مالكين ولا حتى مستأجرين يجعلهما خائفين من التعامل مع الأرض .

— انا أعرف أن الأرض ليست مؤجرة .

— هذا صحيح ، إنها ليست مؤجرة .

— لا تنسى يا هانم أن عطا الله أفندى والحاج وافى مع ما هو مشهور عنهما من أمانة ، يكسبان من الأرض مكسبا كبيرا .

— أترى ذلك ؟

— يكسبان الوجاهة ، وشعور الناس بالحاجة إليهما ..

ــ والله .. جايز .

ــ بل مؤكد ، وأظنك تأخذين من كل منهما ألفا وخمسمائة جنيه كل عام .

قال سعدون :

ــ حتى هذه تعرفها ؟

وقالت وفية :

ــ فعلا .

قال هارون :

ــ أيرضيك أن أدفع إليك فى الأرض كلها أربعة آلاف جنيه ؟

ــ على بركة الله .

ــ وسأوقع العقدين مع عطا الله أفندى والحاج وافى .

ــ وهو كذلك ، ونحن سنبلغهما أن يسلماها إليك .

ــ على بركة الله .

* * *

٤

جلس هارون إلى والده وأمه وهما يشربان قهوة الصباح ، وقال الحاج حامد .

ـــ هيه يا هارون ، ماذا تنوى أن تزرع أرض سعدون وزوجته ؟

ـــ والله يا أبى لم أقرر بعد . أبحث فى فكرة زراعة موالح .

ـــ ربنا يوفقك يا ابنى .

ـــ المهم أريد أن أقول لكما شيئا أعتقد أنكما ستفرحان له .

وقال ابوه :

ـــ هيه هل آن الأوان ؟

وقالت الأم فى فرحة :

ـــ أخيرا نويت ؟

وضحك هارون مقهقها وهو يقول :

ـــ وهل قلت شيئا ؟

وقال الحاج حامد :

ـــ بل قلت كل شيء .

وقال هارون :

ـــ إذن موافقان ؟

وقال الحاج :

ـــ على الزواج نعم ، ولكن ألا تخبرنا من العروس .

قال هارون :

ـــ حسبتك عرفتها ؟

وقالت الأم :

ـــ حميدة بنت سعدون عمارة .

وضحك هارون :

ـــ وكيف عرفتها ؟

وقال الحاج حامد فى ظرف وابتسامة :

ـــ المسألة لا تحتاج إلى ذكاء .

ـــ وما رأيك يا ابويا ؟

ـــ والله لا عيب فيها إلا إدمان أبيها للخمر .

وقالت الحاجة توحيدة :

ـــ ونحن مالنا وماله ؟

وقال الحاج حامد :

ـــ توكل على الله ، إن سعدون صديقى وحبيبى منذ سنوات .

وشدت الأم ابنها فقام من مجلسه ، واحتضنته أمه فى سعادة غامرة ودموع من الفرح تترقرق فى عينيها :

ـــ ألف مبروك يا بنى .. ألف مبروك يا هارون .

وقال هارون :

ـــ على مهلك يا أمى . ألا نعرف أولا إن كانت عائلة سعدون موافقة أم لا ؟

قالت الأم :

ـــ لا ، من هذه الجهة لا يكن عندك فكر .. طبعا موافقة .

وقال هارون :

ـــ متى تستطيعان السفر إلى القاهرة ؟

وقال الحاج حامد :

ـــ إن شئت قمنا معك الآن .

وقال هارون :

ـــ لا ليس إلى هذا الحد . نكلمهم أولا ونتفق على موعد .

وقال الحاج حامد :

ـــ وهو كذلك .

* * *

إن للفتيات فى سن حميدة ووجيدة حاسة سادسة يدركن بها أن هناك نظرة نافذة تحيط بهن ، وتتعرف ما يحاولن أن يخفينه من أعماق نفوسهن .

وبهذه الحاسة لم يخف عن حميدة ووجيدة النظرات المتلصصة التى كان يختلسها هارون طوال فترة الغداء .

وأدركت حميدة أنها أقرب إلى اختياره من وجيدة .

ـــ كانت نظراته إلىّ أكثر تعمقا .. والله لا بأس به ، ربما كان أكبر منى قليلا ولكنه مناسب على أية حال ، وأحسب أننى أستطيع أن أطمئن إلى حياتى وأنا زوجة له . وأنا ـــ والحمد لله ـــ لا أحب أحدا بذاته . وإن كان توفيق قريبنا الذى لا أعرف درجة قرابته لى يحاول أن يشعرنى باهتمامه بى إلا إننى لا أرتاح إليه . إنه لا يعرف شيئا عن مشاعر الحب التى يحاول أن يتخفى وراءها بالنظرات التى أحس فيها الكذب ، والكلمات التى أشعر فيها بالاصطناع الذى يفشل أن يخفيه .

وأحسب أن توفيق بلا مشاعر على الإطلاق . وأرى أيضا أن هارون بلا مشاعر على الإطلاق ولكنه لا شك ذو عقل واع رصين تجربته أكبر من سنه بكثير . ثم هو ليس فقيرا فقر توفيق ، فإن كان يفكر فى مال أبى وأمى فليزيد هذا المال ، فليس هناك ما يدعوه أن ينهبه . أما توفيق فشاب ما زال فى نزق الشباب ، وليس بعيدا حين يخلص هذا المال إلىّ بعد عمر طويل أن ينهبه توفيق لينفقه على ملذات الشباب ، الأمر الذى لا أخشاه مطلقا من هارون . فواضح أن هارون كلف بالثروة ولوع بالغنى . ولا بأس على أن يكون زوجى فأغلب الأمر أنه سيجعلنى سعيدة فى حياتى ، وأنه سيجعل حياتى هذه بلا مشاكل على الإطلاق . وأنا أعرف نفسى وأعرف أننى أحب أن أحيا حياة راضية ، وإن كنت أحب الأشياء النفيسة فلا يستطيع أحد أن يلبى هذه الرغبات التى تزخر بها نفسى إلا رجل غنى ، وواضح أن هارون سيصبح ذلك الغنى الذى يتمنى لنفسه أن يكونه .

أما وجيدة فقد أحست بنظرات هارون . وواضح أنه اختار حميدة فأنا وحميدة متقاربتان فى الجمال ، وطبيعى ما دام الأمر كذلك أن يختار الكبرى ما دام الاختيار قائما على العقل وحده ،

فما رآنى ولا رأى حميدة قبل اليوم ، وليس فىّ شىء يجعله يفضلنى على حميدة .

وفيم العجلة ؟ فكما وجدت حميدة هارون أو كما وجد هارون حميدة فالطبيعى والمعقول أن أجد من يجدنى أنا أيضا ، فهنيئا لحميدة بهارون وهنيئا لهارون بحميدة .

* * *

لم يدهش سعدون ولا دهشت وفيّة حين دق جرس التليفون فى منزلهما وكان المتحدث الحاج حامد بركات . فكلاهما لم يغرب عنه سرعة اقتناع هارون أن يتولى أرض وفيّة كما تولى أرض سعدون ، ورأيا فى ذلك دلالة على أنه انتوى شيئا ، ولم تستطع وفيه أن تكتم ما جاش فى صدرها .

— أتراهننى أنه ينوى أن يخطب واحدة من البنتين ؟

— لا .. لا أراهنك فهذا أمر محتمل . وما رأيك ؟

— والله الرجل لا عيب فيه .

— ربما كان أذكى مما ينبغى .

— وهل هذا عيب ؟

— أحيانا كثيرة يكون الذكاء المفرط شرا من الغباء .

— ما هذا الكلام ؟

— عيب الأذكياء أنهم لا يقدرون ذكاء الآخرين. فيقعون فى مشاكل لاحد لها .

— ما هذه الفلسفة ؟

— تعلمتها من تجاربى مع الناس ومن كثرة ما قرأت .

— أهذا عيبه فى نظرك ؟

— وهو يتعجل الغنى .

— الله يبارك له .

— عيب هؤلاء أنهم لا يذكرون الله كثيرا ولا يعنيهم أن يرضوه .

— يا أخى قلِ هذا الكلام لنفسك .

— الله يعلم ما بينى وبينه ، أما إن كنت تقصدين الخمرة فعقوبتها ستون جلدة ، وأنا عامل حسابى أن يجلدنى الملائكة الجلدات الستين ، ثم سيكون كتابى بعد هذا فى يمينى إن شاء الله .

— عينى عليك باردة ، أنت مرتب كل أمورك مع ربك ..

— حسبى أنى لا أؤذى أحدا ..

— بل أنت تؤذى أهم إنسان بالنسبة لك .

ـــ من هذا ؟

ـــ نفسك .. أنت تحطم كبدك ، والذى لا يحافظ على نفسه لا يستطيع أن يحافظ على الناس .

ـــ المرض والموت من عند الله .

ـــ سبحانه من عنده كل شيء ، ولكن الإنسان لا ينتحر ثم يقول الموت من عند الله .. هذا كفر .

ـــ الكفر والإيمان الله وحده يعلمه .

ـــ ألا تخشى أن تعتدى على أحد وأنت سكران ؟

ـــ أنا لا أشرب إلا بعد أن أصلى العشاء ، وكل الذين حولى سكارى والحمد لله ، والسكران يفهم السكران الآخر ولا يغضب منه .

ـــ عجيبة ! إننا نسمع كل يوم عن السكران الذى قتل ، والسكران الذى بطح .

ـــ أتظنين أننى يمكن أن أقتل أو أبطح ؟

ـــ المهم هل معنى هذا أن نرفض هارون ؟

ـــ أنا لم أقل نرفضه ، ولكن فقط أذكر لك عيوبه وأدعو الله أن يقيه شر نفسه ولهفته على جمع المال .

— ولمن سيكون هذا المال ؟ أليس لابنتك وأحفادك ..

— يا وفيّة المهم ليس المال ، وإنما المهم كيف نجمع هذا المال .

— أيسرق ؟

— إذا تأكد أن أحدا لن يكشف سرقته . وهناك وسائل كثيرة لجمع المال عند المنهوم .. السرقة واحدة منها .

— اترك المستقبل لله .

كان التليفون الذى دقه فى منزلهم الحاج حامد يوم السبت ، وتواعد وا على أن يتناول الحاج حامد وأسرته الغداء فى بيتهم يوم الاثنين .

* * *

قال حامد :

— بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، أنا يا سعدون بك أملك أربعين فدانا وبيتنا فى المنيرة ، ولذلك لم تنل منى الثورة سهما واحدا . وأنا وأنت أصدقاء منذ زمن بعيد .

— نحمد الله ونشكر فضله ..

— منذ أول قانون بعت الأرض بعقد مسجل فى الشهر العقارى لهارون ابنى ، ولم يبق على ذمتى شيء إلا البيت ،

وهارون هو الذى ينفق على أنا وأمه ونحن مطالبنا لا تزيد على اللقمة والهدمة وفنجان القهوة .

ـــ أطال الله عمرك .

ـــ ونريد أن نزوج هارون .

ـــ على بركة الله .

ـــ مد يدك واقرأ معى الفاتحة على خطبة حميدة لهارون .

ـــ على بركة الله ، ولكن ألا ترى أن نسألها ؟

ـــ طبعا .. قم فاسألها .

ـــ قد تطلب مهلة .

ـــ المهلة تكون حين تريد أسرة الخطيبة أن تسأل عن أسرة الخاطب ، وهذا لا داعى له بيننا فكل منا يعرف عن الآخر كل شيء ..

ولأول مرة يتدخل هارون قائلا :

ـــ يا أبى لا تحرج سعدون بك .

وقالت وفيّة :

ـــ لا يا هارون .. ليس هناك أى حرج ، وإن كان على السؤال فسأقوم أنا وأسألها الآن .

وقال الحاج حامد :

ـــ توكلي على الله .

وقامت وفيّة وعادت وعلى وجهها إشراق الأم حين تفرح بابنتها وقالت :

ـــ اقرأ الفاتحة يا سعدون على بركة الله .

وما هو إلا شهر وبعض شهر حتى تم الزواج .

* * *

٥

كان الحاج حامد قد اشترى بيته بالمنيرة أيام الحرب العالمية الثانية ، وكان يقيم به أوقاتا كثيرة إلا أنه أخيرا فضل أن يقيم ببيته فى قريته الحمايدة ولا يترك الريف . فقد كان أصدقاؤه فى القاهرة أغلبهم قد اشتغل بهموم الدنيا التى تكاثرت بعد الثورة ، فوجد أن فى إقامته بالحمايدة ما يعينه على قطع الوقت مع أهل البلد الذين يزورونه وفى لعب النرد مع بعضهم وأغلب القاصدين إليه .

وربما كان مختار عمر أكثر الزائرين له انتظاما فى الزيارة ، ومختار عمر مدرس ابتدائى أحب الحاج حامد وأنس إليه ، وكان يلعب معه النرد أحيانا حتى إذا ملاها جرى بينهما الحديث تعليقا على ما جاء فى الصحف أو تعليقا على ما يحدث فى القرية أو فى القرى المجاورة . وكان مختار يزور الحاج حامد فى الصباح حين ينتهى من دروس المدرسة ويتركه وقت الغداء ليعود إليه بعد القيلولة ليستأنفا ما انقطع من حديث الصباح أو الظهيرة . وكان

هناك زائرون كثر للحاج حامد فهو يحظى بين أهل الحمايدة بالحب والتقدير ، فقد كان رجلا سمحا فى معاملته للناس حريصا أن يرضى الجميع ، وكان يعين الناس على قضاء حوائجهم ، وكانوا يعرفون أنه ليس ذا ثراء فلم يكن أحد يطلب إليه أن يعينه بمال : هبة كان هذا المال أو كان قرضا . وكان منتداه فى الصيف حديقة غير معتنى بها ، ولكنها تقع من البيت فى مكان ظليل بجوار جدار البيت . وكان هذا المنتدى فى الشتاء قاعة واسعة داخل البيت نظيفة الأثاث فى غير أناقة ، وهكذا تيسرت له الحياة . وكان هارون بارا به يراعى دائما أن يجعله هو ووالدته فى غير حاجة إلى شىء ، وكان إلى ذلك الحين يلبى أية رغبة لهما حتى وإن لم يبدياها رغم أنه كان يجهد كل الجهد فى الحصول على المال لكثرة الدين . وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى كان الحاج حامد يزرع فدادينه الأربعين كلها ولم يكن ماهرا فى الزراعة ولهذا أصبحت الأرض مدينة لبنك التسليف بدين ليس هينا وإن كان لا يستغرق الأرض كلها .

وقد أدرك هارون أنه لا يصلح للتعليم فى سن باكرة ، ولم يكن أبوه حريصا على إرغامه أن يكمل تعليمه فقد كان قد تبين فيه

هوايته الشديدة للزراعة ، وارتأى أن إشرافه على الأرض سيكون خيرا له من الشهادة ، خاصة وأنه يتعثر دائما فى دراسته كما يتعثر أبوه فى زراعته .

ترك التعليم وهو فى الثالثة الثانوية ، وكانت حتى ذلك الحين تعادل الأولى الثانوية الآن . وبطبيعة الحال لم يتول شأن الأرض منذ بقائه بالبيت وإنما ظلت الأرض تحت رعاية أبيه . وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى كان هارون هو فعلا الذى يرعى الأرض ويعامل بنك التسليف ، وما كان على أبيه إلا التوقيع حين يطلب إليه هارون هذا التوقيع .

فحين صدر القانون خشى الحاج حامد أن تصدر قوانين أخرى . ولحسن حظه أو حظ هارون إن شئت أنه لم يكن يؤجر الأرض ولا كان يشارك الفلاحين بالمزارعة فيها ، وإنما كان يزرعها جميعا لحسابه ، وكذلك فعل هارون حين استقل بالإشراف على الأرض .

كان هارون قد شغلته الأرض ورغبة الغنى حتى عن نفسه ، وخاصة أن حالة الزراعة فى الفترة التى أعقبت القانون وما استتبعه من إجراءات جديدة فى بنك التسليف ، وهبوط أسعار المحاصيل

كل ذلك جعله ذاهلا عن كل شيء ، إلا أن يواجه هذا الطوفان الجديد ، وإن لم يكن خاضعا لأهوال هذا الطوفان .

وهكذا لم يفكر فى الزواج إلا بعد ذلك بسنوات ، وربما كان لقاؤه بحميدة هو الذى جعله يتذكر أنه لم يتزوج بعد وأنه قد آن له أن يفعل . وما كان إلحاح أمه عنده إلا كلمة عابرة تلتقطها منه أذن وتفلتها منها الأذن الأخرى . وحين تزوج كانت الليلة الأولى موقفا صعبا بالنسبة إليه وإلى حميدة فى وقت معا . فهو مع خبرته الواسعة فى معاملة الحياة والناس لم يتعود أن يعامل النساء إلا فى نزوات عابرة كانت تتم فى الليالى التى يقضيها بالقاهرة . أما حميدة فموقفها موقف الفتاة الشريفة التى عاشت عمرها كله فى بيت أبيها ، ولا تعرف عن الرجال إلا ما كان زميلاتها فى المدرسة يتهامسن به تهامسا خاطفا لا يكوّن تجربة ولا يقدم علما ، خاصة وأنها تركت المدرسة فى سن مبكرة . وكانت الليلة الأولى فى بيت المنيرة ، فقد استقر الرأى أن يقضوا فيه الأيام التالية للزواج .

وحين خلت بهما الحجرة :

— شرفت منزلك .

— شكرا .

— إن شاء الله سأعمل على أن تكونى سعيدة دائما ولا تحملى هما .

— أتوقع هذا منك .

— وما الذى جعلك تتوقعينه .

— الذى سمعته عنك والذى رأيته فيك ..

— وماذا سمعت ؟

— أنك حملت مسئولية بيتك وأنت فى سن صغيرة ، وأنك جاد فى حياتك وأنك قادر على جعل الناس يحبونك ..

— الحمد لله ! وما الذى رأيته فىّ ؟

— رأيتك فى لقائى الوحيد بك تزن الكلام قبل أن تقوله ، وتأبى أن تقول كلاما إلا إذا كان له معنى .

— أرجو الله أن تكون حياتى معك محققة لهذه الآراء .

— إن شاء الله .

— قولى لى .

— أقول لك .

— هل تحبين البقاء فى هذا البيت الكبير ، أم نجعل الإقامة الأساسية لنا فى البلد ؟ فقد قال لى والدك مرة إنكم تحبون أن

تقضوا فى الريف بضعة أيام من حين إلى آخر ..

ـ هذا صحيح .

ـ ثم إنك فى البلد ستجدين أمى وأبى معك دائما ، وهنا ستكونين وحدك فى فترات طويلة ، فأنت تعرفين أن دخلنا الأساسى من الزراعة ، ولا بد لى أن أكون قريبا من الأرض أغلب الوقت .

ـ واضح أنك تريدنى أن أقيم فى البلد ؟

ـ ذكاء توقعته منك .

ـ أنا أواجه حياة جديدة ، وأريد أن يكون أساس معاملتى لك الصراحة والصدق .

ـ أحب هذا .

ـ ولو أنك لا تفعله .

وقهقه هارون وهو يقول :

ـ وكيف عرفت هذا أيضا ؟ ..

ـ واضح أنك بارع فى الدوران بالحديث ، وأن لك قدرة على أن تجعل الرغبة التى فى نفسك تعرض عليك من الذى تحدثه ،فيبدو الأمر كأنه عرض منه هو لا رغبة فى نفسك أنت .

وقهقه مرة أخرى وهو يقول :

ـــ واضح أنك تحاولين فى ذكاء شديد أن تحللى كل جانب من جوانب نفسى .

ـــ أنت منذ اليوم المحور الذى تدور عليه حياتى كلها .

ـــ وأنت أيضا ..

ـــ أشكرك ، ولكن هذا مستحيل فإن لك مشاغـلك فى الزراعة وزيادة دخلك ومعاملة الناس . فأنا قد أمثل جانبا هاما فى حياتك ، فى حين تمثل أنت حياتى كلها .

ـــ ولكن كل هذه المحاور التى قد تشغلنى الهدف منها أن تجعل حياتنا سعيدة .

ـــ إن الرغبة فى الغنى أغلب الأمر تكون غريزة فى النفس ، وإن كانت تحاول أن تبحث لنفسها عن مبررات أخرى .

ـــ ماذا قرأت من كتب

ـــ لا أخفى عليك أنى أحب القراءة والروايات بالـذات العربية ، والأجنبية الفرنسية بالذات فقد كنت فى مدرسة فرنسية إلى السنة الثانية الثانوية .

ـــ أعرف ، وواضح أن ثقافتك أكبر بكثير مما حصلته فى

المدرسة .

ـــ وماذا تقرأ أنت ؟

ـــ أنا كما تعرفين لم أكن تلميذا مجدا ..

ـــ هذا لا شأن له بالقراءة .

ـــ أحب أن اقرأ فى الاقتصاد ..

ـــ طبعا .

ـــ ولا أخفى عنك أن قراءتى فيه تجعلنى حين أتحدث إلى أساتذة الاقتصاد الكبار أفهم لغتهم كل الفهم ..

ـــ مؤكد ، وأغلب الأمر أنك تجاد لهم مجادلة الند للند .

ـــ الحقيقة لا أشعر أنهم يعرفون شيئا لا أعرفه .

ـــ ليس هذا بغريب عليك ، فما دمت تقرأ فى الاقتصاد فأنت مثلهم فى العلم النظرى ، وتزيد عليهم فى الممارسة العملية .

ـــ إنك ماهرة جدا فى الحديث . لقد استطعت أن تبعدى بنا عن سؤالى الأول ولو أننى أحسب أننى عرفت الإجابة ..

ـــ لا شك أنك عرفتها .

ـــ لك ما شئت ، فلتقيمى إذن فى القاهرة .

ـــ ولكن هذا لا يمنع أن أرافقك إلى البلدة حين ترغب فى

ذلك .

ـ اتفقنا .

* * *

توثقت الصداقة بين سعدون والحاج حامد ، فكان الحاج حامد يحرص كل الحرص أن يزور سعدون كلما جاء إلى زيارة زوجة ابنه ، وكان سعدون يأنس إلى الحاج حامد وكان يكثر من زيارته فى البلدة ويعود فى نفس اليوم حتى لا تفوته جلسة المقهى .

وجرت الحياة رخاء فى الأسرة الصغيرة الجديدة ، وفى الأسرتين الأخريين اللتين جمعهما النسب الجديد .

وشاء الله أن يكون زواج هارون خيرا وبركة على بيت سعدون ، فلم تمض إلا شهور ثلاثة حتى تقدم لخطبة وجيدة أستاذ بدرجة مدرس فى كلية الحقوق يملك أبواه حوالى عشرين فدانا وهو ابنهما الوحيد ، هو أيضا شأن هارون فى عائلة حامد . ولم يكن العريس أمجد حماد قد رأى العروس فدبرت تحية هانم الأحمدى واسطة العريس اللقاء ، ورضى كل من العروسين عن الآخر . وتم الزواج بعد شهرين من الخطبة ، وسكن الزوجان حى الجيزة ليكون الزوج قريبا من الجامعة . ولم تمر سنة حتى رزقا بهناء ثم مرت سنة أخرى ورزقا بأيمن .

* * *

٦

ما هذا الذى حدث ؟ كيف استطاع هارون أن يجحد فضل أبويه هذا الجحود ؟ لقد أصبح لا يزورهما إلا فى القليل النادر حتى إنه كان يزور القرية ويمر بالأرض ولا يلقى والديه وإنما يذهب إلى مزارعه الأخرى .

ربما زارهما مرة فى الشهر ، أو قد يمر شهران أو أكثر ولا يراهما ! وكأنما كان الحاج حامد يتوقع هذا ولكن الحاجة توحيدة كانت تعيسة بهذا التجاهل من ابنها تعاسة فاجعة .

وكان هارون قد دأب أن يسهر مع حميه سعدون ، ولكنه كان لا يشرب معه إلا فى القليل النادر . وفى هذه السهرات تعرف على عبد المجيد زين الدين ، وكان زين الدين مشهورا أنه من كبار الأغنياء .. وفى ليلة سأل هارون :

ــ ماذا تزرع يا هارون ؟

ــ أحاول زراعة الموالح .

ـــ تحتاج إلى صبر طويل وإنفاق كبير وخبرة عميقة .

ـــ وماذا ترى سعادتك ؟

ـــ أتعرف مكتبى فى شارع قصر النيل رقم ١٤ .

ـــ عظيم .

ـــ تمر على غدا الساعة الثانية عشرة .

قال له فى المكتب :

ـــ عندى لك زراعة تكسب منها مبالغ خيالية .

ـــ خيرا ؟ .

ـــ الأعشاب الطبية .

ـــ سمعت عنها ، ولكن كيف أبيعها ؟

ـــ هذا عملى ، فإنى متعاقد مع شركات أجنبية وإنى سأشترى منك المحاصيل كلها وسأدلك على محلات التقاوى وكيفية الزراعة ، وأدفع لك مقدم ثمن المحصول حتى لا تتكلف أنت وحدك الإنفاق عليها . وتستطيع أن تبقى فى نفس الوقت على أشجار البرتقال ..

ـــ شىء عظيم .

ـــ نكتب عقدا ؟

ـــ عشرة عقود إذا أردت .

ـــ سنكتب عقدا واحدا على أربعة أنواع من الأعشاب ، وبعد أن تجرب الزراعة نزيد العقود إن شاء الله .

ـــ وهو كذلك ..

وكانت فاتحة خير عميم على هارون ، فقد بدأ يزرع هذه الأعشاب وبرع فى زراعتها براعة فائقة ، واستطاع أن يبقى أشجار الموالح فى الأرض وكسب آلافا من الجنيهات .

* * *

ومرت سنوات ازدادت فيها ثروة هارون زيادة فائقة ، وأنجب فى خلال هذه السنوات (شهاب) (وفائق) من بعده ، وطبعا فرح بولديه ولكن فرحه بالمكاسب كان أكبر . وكانت حياته فى البيت هادئة مطمئنة ، ولم يكن ازدياد ثروته مفاجأة لحميدة فقد كانت تعرف رغبته العارمة فى الغنى والاستكثار من الأموال .

* * *

لم يكتف هارون بالمكاسب التى كانت تدرها عليه عقوده مع مكتب عبد المجيد زين الدين ، فتاقت نفسه إلى مكاسب أعظم حتى وإن ضحى بمن كان سببا فى هذا الغنى الذى بلغه ، فراح

يغدق المال على رفعت فواز سكرتير عبد المجيد زين الدين وقد كان مثله شرها للمال، وفى يوم ..

ــ قل لى يا رفعت !

ــ تحت أمرك يا هارون بك .

ــ لو طلبت منك شيئا ؟

ــ لا أتأخر .

ــ أسماء الشركات التى يتعامل معها عبد المجيد زين الدين فى الخارج .

ــ آه .. وماذا تصنع بها ؟

ــ مجرد علم .

ــ هارون بك أنت رجل ذكى ، فأرجوك لا تظن أن الآخرين أغبياء .

ــ أعطيك عن اسم كل شركة خمسمائة جنيه .

ــ ألف .

ــ ألف .

وعرف الأسماء وعناوينها ، وسافر إليها واستطاع فى سهولة أن يغرى الشركات بالتعاقد معه على أن يكون وكيلها فى مصر وفى

الشرق الأوسط كله ، وقد كان واثقا من نجاح عروضه لأن الأسعار التى قدمها كان فيها للشركة أرباح أكبر مما يحققه لها عبد المجيد زين الدين .

و لم يهم هارون أنه قطع مورد الرزق الوحيد الذى كان يعيش عليه عبد المجيد زين الدين ، و لم يهمه أيضا أن الحياة سترغمه على لقائه ، فعند المال كل شيء مباح و كل شيء يهون .

كان لقاؤه بعبد المجيد زين الدين فى المقهى مع سعدون . و لم يقل عبد المجيد شيئا أول الأمر حتى إذا شرب كأسه الثالثة وسرت حمياه فى دمائه .

نظر إلى سعدون :

— سعدون .

— أفندم ؟

— أهنئك .

— خير إن شاء الله .

— لقد زوجت ابنتك الكبرى لأسفل رجل فى العالم .

— أعوذ بالله لماذا هذا ؟

وقال هارون :

ـــ لا عليك يا عمى ، فإن الخسارة مؤلمة .

فقال سعدون :

ـــ هل تسببت فى خسارته ؟

وقال عبد المجيد :

ـــ خسارة هينة .. خرب بيتى تماما

وقال سعدون :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لماذا يا هارون ؟ لماذا يا ابنى أنت غير محتاج .

وقال هارون فى تحد وصلافة وجمود وجه :

ـــ السوق لا يعرف إلا من يفهمه .

وقال عبد المجيد فى ثورة مكبوتة .

ـــ بلا شرف ؟

ـــ هذه ألفاظ لا شأن لها بالسوق .

وقال سعدون :

ـــ بل التجارة شرف يا ابنى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال هارون لينهى المناقشة .

ـــ أستأذن أنا .. سلام عليكم .

وقال عبد المجيد .

ـــ الله يخرب بيتك كما خربت بيتى .. مع السلامه . ولماذا السلامة ؟ مع الموت والخراب إن شاء الله .

وانصرف هارون .. وتجهم المجلس .. وقال سعدون :

ـــ لا علينا ، نعود إلى ما كنا فيه .

وعندما حان انصرافهم همس سعدون فى أذن عبد المجيد .

ـــ انت بكرة فى المكتب .

ـــ إن شاء الله .

ـــ انتظرنى الساعة الثانية عشرة .

ـــ أهلا وسهلا .

سعدون فى طبيعته هادئ خجول ، ولعل كثرة قراءته زادت من خجله هذا .

لا يزول عنه خجله إلا حين يشرب . وكان فى مجلسه من عبد المجيد أسيفا يكاد الحياء يرتج شفتيه ، ولكنه كان مصمما أن يقول ما يريد قوله .

ـــ آنا آسف .

ـــ وأنت ما ذنبك ؟

ـــ على الأقل عرفته عن طريقى .

ـــ كان يمكن أن أعرفه عن طريق أى إنسان .

ـــ على كل حال أنا أشعر كأننى أنا المذنب .

ـــ الأمر لله .

ـــ أنا لا أستطيع أن أعوضك عن الخسارة التى لحقت بك ، ولكننى أرى من واجبى أن أخفف وقعها عليك .

ـــ أنا شاكر مشاعرك على كل حال .

ـــ المشاعر فى هذه المواقف لا تعنى شيئا .

ـــ لا يملك الناس غيرها .

ـــ عبد المجيد .. لك عندى فى كل شهر مائتا جنيه .. كنت أتمنى أن أقدم لك أكثر ولكن ..

ـــ ما هذا الذى تقول ؟

ـــ ما سمعت .

ـــ وكيف أقبل ؟

ـــ لتفكر أولا كيف تعيش مستورا .

وصمت عبد المجيد وأطرق ، ولم يستطع أن يرد دمعتين تحدرتا على وجنتيه .

— لا أستطيع فى حالتى التى أنا عليها اليوم أن أمتنع ، فإن تكن كرامتى ترفض فحاجتى تلح .

— أخوك ويقف إلى جانبك .

— ونعم الأخ !

— سلام عليكم .

— مع ألف سلامة مع الشكر .. لا أستطيع ..

واختنق مرة أخرى بالبكاء .

— السلام عليكم .

* * *

ولم يقل سعدون شيئا لهارون عما صنعه مع عبد المجيد ، فكان شأن هارون عجيبا معه فقد زاد من المبالغ التى كان متفقا عليها معه ومع حماته دون أن يطلب ذلك . ربما لأنه كان يعلم أن إباحة الأرض له ليزرعها قائمة على توكيل من صاحبى الأرض الصوريين ، فكان فى مقدور سعدون وزوجته أن يأمرا عطا الله أفندى والحاج وافى بأن يسقطا التوكيل عن هارون كما يسقطه عنه سعدون نفسه . وإذا فقد هارون هذه الأرض فإنه يفقد شيئا ليس هينا ، ولو أنه استولى بنفس الطريقة على أراض أخرى

كثيرة ، أصحابها يقيمون بعيدا عنها ولا قدرة لهم على مواجهة الزراعة ، ولكن مساحة الأرض المتاحة له من حميه وحماته ليست بالشيء القليل ، وهو أيضا حريص إلا يسئ إلى بيته ، ولا ينغصه من ناحيته منغص . فلو أن حماته وحماه لم يرضيا عنه لأثار هذا مالا يحب له أن يثور من مشاكل فى بيته .

أما أبوه وأمه فلا يستطيعان أن يثيرا مشاكل فبخل عليهما بخلا شديدا ، فكانت تمر شهور لا يرسل إليهما مالا مع علمه أن لأبيه ريع أرضه التى استولى عليها ، وله أيضا بيته الذى يقيم فيه ، وإن يكن قد جمل بيت أبيه هذا وأثثه بأفخر الفراش إلا أنه يظل مع ذلك بيت أبيه .

الوحيد الذى كان يزور حامد وزوجته من القاهرة هو سعدون ، وقد أصبح يصحب حفيديه (شهاب) (وفائق) ليزورا جديهما ويمرحا فى القرية فى كل يوم جمعة . وأنس الطفلان إلى الجدين أنسا شديدا . وكان المال الذى يرسله إليهما هارون كلما تذكرهما لا يكاد يفى بما يحتاجان إليه من طعام وملبس ودواء فكانا فى ضيق مالى شديد لم يخف أمره على سعدون، وكان حائرا ماذا يستطيع أن يفعل إلا أن ياتى فى كل أسبوع بهدية

كبيرة نافعة للأبوين المهجورين ، فأحيانا يأتى لهما بطعام وفير أو يأتى لهما بملابس ، وكانا يقبلانها فى إذعان يقرب إلى الذلة .

وتعرف سعدون فى هذه الزيارات على أصدقاء حامد جميعا ، وأنس إليهم وأحبهم .

* * *

مرضت الحاجة توحيدة وعادها طبيب الوحدة وهو صديق فلم يقبل أن يتقاضى أجر الزيارة . ولم يكن المرض خطيرا ولكنه كان يحتاج إلى دواء على أية حال . وليس معهما ثمن الدواء واضطر الحاج حامد كارها حزينا أن يطلب ابنه فى التليفون ويخبره أن والدته مريضه .

— مريضة بماذا ؟

— المصران الغليظ .

— بسيطة .

— الحمد لله .

— على كل حال سأحضر قريبا لأراها .

— أهلا بك .

واستكبر الأب أن يقول لابنه أرسل الدواء ، ووضع سماعة

التليفون . ورأت الأم ما ارتسم على وجهه من أسى وشجن وحزن ، وقامت من فراشها وما هى إلا لحظات حتى عادت :

— حاج حامد .

— نعم يا توحيدة .

— لا تحمل الهم أبدا . خذ هذا الكردان .

— حتى المصاغ القليل الذى تملكينه ستبيعينه هو أيضا .

— بيعه خير من أن يرثه ابن لنا جحد أبويه . بعه يا حاج حامد .

ما فائدة المصاغ إن لم يكن عونا عند الشدة . فما دمنا فقدنا ضمير ابننا فلا بأس علينا أن نستعين بمصاغنا .

وأخذ الحاج حامد المصاغ ، ولم يكن معه أجر السيارة إلى الزقازيق أو القطار إلى القاهرة فراح يفكر فى الأمر .

ترك الحاج توحيدة فى مجلسها وخرج يخلو بنفسه فى غرفة الاستقبال ، ولم يتح له مختار عمر أن يخلو إلى نفسه طويلا :

— سلام عليكم !

وفى صوت هادئ ليس فيه رنة الترحاب التى تعودها مختار منه :

ـــ أهلا .

ـــ مالك ؟

ـــ لا شيء .

ـــ بل هناك أشياء .. أنت تحمل هما ثقيلا .

ـــ ومن فيها مرتاح يا مختار ؟

ـــ المؤمن .

ـــ نحمده ، فبالإيمان نحتمل الحياة .

ـــ كنت مسافرا إلى القاهرة ، ولكننى لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال .

أنا كنت ذاهبا أزور الأولياء وبعض أقاربى .

ـــ كتر خيرك .

ثم وضحت فى ذهنه فكرة :

ـــ مختار ، أنا أريدك أن تذهب إلى القاهرة .

ـــ أسافر .. أسافر حتى ولو لم أكن ناويا للسفر ، فما بالك وأنا أنتويه .

ـــ الحاجة عندها قطعة مصاغ تريد أن تبيعها لتشترى بثمنها قطعة أخرى رأتها عند إحدى السيدات اللائى يزرنها .

ـــ وماله ؟

واعتصرت قلب مختار يد قاسية كبت آثارها أن تبدو على وجهه ، فما يدرى هل وفق إلى ذلك أم لم يوفق ، وإنما قال كلمته السريعة ثم صمت لحظات يكتم إجهاشة بكاء تعتصر فؤاده ، حتى إذا استوثق أن صوته لن يخونه قال :

ـــ هاتها .

ـــ هاكها .

فأخذ الكردان ووضعه فى جيبه وقام .

ـــ أقوم أنا لأعود مبكرا .

ـــ مع السلامة .

* * *

حين نزل مختار إلى القاهرة توجه من فوره إلى الصاغة وعرض الكردان للبيع ، فكان أكبر ثمن له ثلاثمائة جنيه . فأعاده إلى جيبه وقبل أن يغادر الدكان الذى كان فيه بحث فى دفتر التليفون وعثر على الرقم الذى يريده وأدار القرص به .

ـــ منزل سعدون بك ؟

وجاءه صوت سعدون .

ـــ نعم أنا هو ، من الطالب ؟

ـــ مختار عمر صديق الحاج حامد .

ورحب به سعدون :

ـــ يا أهلا يا مرحبا أين أنت يا مختار افندى ؟

ـــ أنا هنا فى القاهرة وأريد أن أشوفك .

ـــ يا مرحبا نتغدى معا اليوم .

ـــ أعفنى من الغداء . أريد أن أرجع اليوم .

ـــ تعال أولا ثم نتكلم فى موضوع الغداء .

* * *

وقص عليه قصة الكردان ومرض الحاجة توحيدة ، وأطرق سعدون طويلا وقد تمزقت نياط قلبه .. ألهذا نأتى بمن يخلفنا ؟.. أنهب لهم مالنا وأنفسنا ليجعلوا منا حطاما من البشر ؟ . وفكر كثيرا .. كيف سيصل بالمال إلى حامد دون أن يعرف حامد أنه منه .

وحين طال الصمت خشى مختار أن يكون قد جاء إلى من لا يعنيه الأمر ، وأنه أخطأ المقصد والمتجه فزاد حزنه ، بل أضيف إليه الخجل من نفسه والأسف أنه أذاع سر صديقه بغير داع إلى

ذلك وقال :

ــ سعدون بك كأنى لم أقل لك شيئا .

وأفاق سعدون من أحزانه وقال فى حدة :

ــ يا أخى انتظر ، أو فكر معى على الأقل .

ــ أفكر .. فيم أفكر ؟

ــ ألا تدرى فيم تفكر ؟

ــ لا والله ، بل ولا أدرى أن المسألة تحتاج إلى تفكير ..

ــ شأنك عجيب يا مختار أفندى .

ــ هل شأنى أنا هو العجيب ؟

ــ أم تراك تظن أنه شأنى أنا هو العجيب .

ــ والله نعم . أظن أن شأنى أنا ليس عجيبا . صديق لك فى محنة وقصدت إليك .. فبدلا من أن تدفع عنه هذه المحنة تصمت ..

ــ وهل هى محنة واحدة ؟

ــ الموجود حاليا محنة واحدة .

ــ بل محن كثيرة .

ــ كثيرة ؟

ـــ المحنة الأولى جحود ابنهما لهما . والمحنة الثانية كيف نقدم المال لهذين العظيمين ؟ إنهما ليسا فقيرين من الذين تعودوا مد أيديهم للناس وابنهما من كبار أغنياء مصر .. أما مسألة الكردان هذه فلا قيمة لها .

ـــ كيف ؟

ـــ سأعطيك المبلغ وآخذ الكردان ، وأجعل الحفيدين يشتريان لجدتهما قطعتين من الذهب ضعفى ثمن هذا الكردان ، على أن يكون ذلك بعد شهر أو اكثر حتى لا يظنا بالهدية منهما ظنا لا نريده أن يخطر على بالهما .

ـــ نعم التفكير .

ـــ كيف نقدم لهما هذا المال بعد ذلك .. تلك هى المحنة

ـــ ونعم الأخ أنت يا سعدون بك .

ـــ قل هل عندكم مكتب بريد .

ـــ عندنا .

ـــ إذن حلت .

ـــ كيف ؟

ـــ لا شأن لك .. انتظر حتى آتى لك بثمن الكردان . تقول

ثلاثمائة جنيه ؟

ـــ نعم .

ـــ ولكنك تستطيع أن تقول إنك بعته بأربعمائة .

ـــ أنعم وأكرم !

ومنذ ذلك اليوم كانت تصل الحاج حامد شهريا خطابات مسجلة بمبلغ ثلاثمائه جنيه مع بطاقة باسم هارون حامد بركات .. ولم يقف المبلغ عند هذا الحد بل كان يرتفع مع زيادة الغلاء حتى بلغ بعد سنوات ستمائة جنيه فى الشهر ، ولم ينس فى نفس الوقت عبد المجيد ، فقد كان يزيد له المبلغ الشهرى حتى يواجه الغلاء الذى يفغرفاه المتوحش على الناس .

* * *

٧

لم يمل الحفيدان شهاب وفائق زيارة جديهما حتى بعد أن أصبحا شابين يستميلهما ما يستميل الشباب من متع وانطلاق ، فقد كانا يجدان عند جديهما وجدتهما نوعا من الرعاية والحب لا يجدانه فى ظل أبيهما .. وإن وجداه من أمهما .

دخل شهاب كلية الهندسة ودخل فائق كلية التجارة ، وكانا جادين فى الدراسة جدا يمكنهما دائما أن يحصلا على درجة مشرفة . وكان سعار المال يزداد تحكما فى والدهما يوما بعد يوم ، فالأرقام لا نهاية لها ، وجمع المال عند بعض الناس غريزة فى ذاته ، قد يدعى المسعور منهم أنه إنما يجمع الأموال لأولاده أو يجمعه ليتقى فجاءات الحياة . كذب هذا جميعه وأشباهه ، فهارون قد أصبح من الغنى بمكان يندر أن يصل إليه أحد ، وأصبح واثقا أنه يستطيع أن يواجه الحياة حتى آخر الحياة ، بل إن ابنيه وزوجته أصبحوا فى مأمن من ريب الفقر ، بل إنهم من بعده سيصبحون من أعظم

الأغنياء ، وكذلك الأحفاد حين يأتى الأحفاد . ولكن هارون لا يكتفى ولا يهدأ أو يستريح ، فجمع المال فى ذاته هو حياته وكل ما يسعى له . أما ولداه فقليلا ما يراهما.ونادرا ما يعلم ماذا هما صانعان بحياتهما ، وإنما يعرف خبر نجاحهما ضمن سائر الأخبار التى تلقيها إليه حميدة فيما تلقى إليه من أخبار حين يجمعه بها الليل بعد يوم طويل هو فيه دائما ملهوف على زيادة ثروته .

والذى لا يعنى بولده ليس عجيبا ألا يعنى بوالديه . قد يتذكرهما فجأة فيطلبهما فى التليفون وما داما لا يطلبان مالا فى المكالمات فإنه يطمئن نفسه بل هو لا يريد أن يسأل نفسه من أين لهما بالمال .. فإن سمحت نفسه وكان فى حالة نفسية مرحة أرسل إليهما بعض المال ، متصورا أن فيما يرسل من حين إلى حين غاية الكفاية ليعيش والداه . فى يوم من الأيام النادرة فى حياة هارون جلس إلى أسرته على مائدة الغداء ، وفجأة قال شهاب :

— أبى لماذا لا يأتى جدى وجدتى ليعيشا معنا ؟

وكأنما كان السؤال لكمة أصابت رأس هارون ، فصمت حينا ثم قال :

— جدك له أصدقاؤه فى البلدة ولا يجد السعادة فى البعد

عنهم ، كما أنه لا يحب أن يغير بيته لا هو ولا جدتك ، وقد علت بهما السن ومن الصعب أن يغيرا مكان الإقامة فى سنهما هذه .

وانقض عليه فائق :

— ولماذا لا تذهب أنت إليهما ؟

وأطرق هارون حائرا فى غير خجل ، فمثله لا يعرف الخجل .

— يافائق أنا لا أراكما إلا فى القليل النادر ، فكيف تطلب منى أن أذهب إليهما ؟ .

— لا يمكن أن يتركا هكذا .

— أنا أطلبهما بالتليفون كلما وجدت فرصة .

ويقول شهاب :

— لا تستطيع أن تتصوركم يفرحان حين نذهب إليهما مع جدى سعدون كل أسبوع . أو حتى حين يتخلف جدى عن الذهاب ونذهب أنا وفائق إليهما .

— هذا طبيعى .

ويقول فائق :

— ولكنى يا أبى أجد سحابة حزن تغشى وجهيهما كلما سألانا عنك .

وصمت ثم قال فى محاولة لإقفال الموضوع :

ــ الحقيقة أنا مقصر .

ــ هل تذهب معنا يوم الجمعة القادم ؟

ــ لا أستطيع أن أعدك الآن ، فأنا لا أعرف مواعيدى .

وأطرق الشابان وقالت حميدة :

ــ لماذا لا تذهب يا هارون ؟ إن هذا سيفرح ولديك وأبويك ، بل ويفرحنى أيضا فأنا مشوقة إليهما . سنوات طويلة لم نرهما .

ــ لا أستطيع أن أعرف مواعيدى وأنا معكم فى البيت . سأرى مواعيدى .

ورأى مواعيده و لم يذهب . أتراه كان يخشى اللقاء بعد هذا الجحود الطويل منه ؟ ربما وإن كان هذا بعيدا عن خلقه .

كانت الحياة فى بيت هارون رغده سعيدة ، فهو حريص ألا يشغل نفسه بمناقشات داخل البيت ، فكل ما تطلبه حميدة أو ولداه يجاب . فلم يكن غريبا أن يكون لكل منهم سيارة خاصة ، وأن تكون النقود فى أيديهم كافية دائما لما تتوق إليه نفس أى واحد من ثلاثتهم .. ولكن الثلاثة جميعا كانوا يشعرون أنهم لا يعيشون كما

يعيش الناس ، وأن هناك شيئا كبيرا يفتقدونه فيفقدونه . وكانوا لا يخفون هذه المشاعر عن بعضهم البعض ، فكان شهاب يقول دائما .

— لقد حول أبونا أبوته إلى نقود واستراح .

وكان فائق يجيبه :

— إنه يملك المال ، وكل عاطفته منصرفة إليه . أما نحن فلنأخذ ما نريد على شرط واحد ، ألا نزعجه بأى أمر من أمورنا

وتقول حميدة فى محاولة لإرضاء ابنيها :

— وماذا تريدان .. ماذا ينقصكما ؟

ويقول شهاب دون ريث من تفكير :

— ينقصنا أب .

وتصيح حميده وهى تعلم أنها على غير حق .

— أطال الله عمره ! يعنى هو مشغول كل هذا الشغل من أجل من .. أليس من أجلنا ؟

ويقول فائق :

— أبدا .. إنه يعمل ليل نهار ليشبع هوايته فى جمع المال .

وتقول حميدة :

ــ هل تأخر عنكما فى شىء ؟

ويقول شهاب :

ــ أتعرفين يا أمى أننا لولا جلوسنا مع جدنا سعدون وجدنا حامد ما عرفنا أى شىء عن الحياة ولا المبادئ ولا القيم . فهذه أشياء لا نتعلمها من المدارس أو الكليات ، ولا يستطيع الشباب فى مثل عمرنا أن يحدثونا عنها .

وتقول حميدة :

ــ والله يا بنى لا يصدق عليك إلا ما يصدق على البشر كلهم . إن أحدا منهم لا يرضى عن حاله أبدا ، وكل إنسان يبحث فى داخله عما يتعسه أكثر مما يبحث عما يسعده .

ويقول شهاب :

ــ أهذا رأيك ؟

ــ وما رأيك أنت ؟

ــ رأيى أن الحياة العامة ممارسة ، ومعرفة الناس وتجاربهم ثروة أكبر من ثروة المال .

ويكمل فائق :

ــ ونحن شباب فى يدنا المال ، وحتى أصدقاؤنا فى الكلية

يتقربون إلينا لننفق عليهم فما ندرى من منهم الصادق ومن المنافق .

ويقول شهاب :

ــ نحن أكثر الناس حاجة إلى أبينا كإنسان .. لا كأموال .

وتقول حميدة :

ــ أجربتم القراءة ؟

ويقول فائق :

ــ قليلا ما نقرأ ، ولكن القراءة وحدها لا تكفى . قد تهب لنا الثقافة ولكنها لا تهب لنا الخبرة .

ويقول شهاب :

ــ لا تعجبى يا أمى إذا ضل بنا الطريق ، ووقعنا فى أخطاء لا يجدى المال فى تلافيها .

وبقلب الأم تصيح حميدة :

ــ يا ابنى قل وغيّر .. لا قدر الله ولا كان .

ــ أخاف يا أمى .. أرجو ألا يقدر الله . ولكن إذا ضللنا فسيكون الخطأ من طريقة عيشنا لا من شىء آخر .

* * *

٨

كان سعدون فى بيته بجاردن سيتى الذى لم يغيّره منذ زواجه .. ولم يكن بحاجة أن يغيّره فقد كان المال وافرا عنده من ريع الأرض الذى كان يزيد زيادة فاحشة . كما أنه أصاب مبلغا يزيد على مليونى جنيه حين آلت عمارة عابدين للسقوط وقررت الجهات المختصة إزالتها حتى لا تنقض على من بها ، ورأى سعدون أن بيع أرضها خير له من إعادة بنائها . وكانت العمارة مقامة على حوالى ألف متر ، وكان سعر المتر فى هذه المنطقة قد تجاوز الألفى جنيه .. فباع الأرض بما يزيد على مليونى جنيه وبذلك أصبح موفورا فى ماله السائل ، كما كان موفورا بأرضه وأرض زوجته وفيّة الذى وصل إيجار الفدان فيها إلى ألف جنيه فى العام ، كان يدفعها لها هارون راضيا فقد كان يكسب من الأرض أضعاف هذا المبلغ .

جاء الخادم يبلغه أن عبد المجيد زين الدين بالدور الأول يرجو أن يلقاه ، فتعجب سعدون لهذه الزيارة المفاجئة فقد كان لا يرى

عبد المجيد إلا فى أول كل شهر ليسلمه المبلغ الذى تعهد أن يقدمه إليه والذى زاد إلى أربعمائة جنيه فى السنوات الأخيرة . كان مرتديا ملابسه فنزل من فوره إلى غرفة الاستقبال فى بيته :

ـــ مرحبا عبد المجيد بك !

ـــ أهلا بالرجل العظيم !

ـــ وبعد لك ؟ إنك دائما تخجلنى .. قهوتك مضبوطة أليس كذلك ؟

ـــ نعم .

وطلب سعدون القهوة لضيفه الذى ظل شبه صامت لا يتكلم ، وإذا تكلم لا يتكلم إلا عن الجو والصحة وأولاده ، وهذه الأحاديث لا تعنى شيئا وكلما تكلم ازدادت دهشة سعدون من هذه الزيارة التى لم يتصور أن يكون المراد منها مجرد الحديث عن الجو والصحة والأولاد . عرف من الأحاديث أن إلهام حفيدة عبد المجيد من ابنه وجدى أصبحت فى السنة الثالثة من كلية التجارة ، وأن حفيده نبيل من ابنه إسماعيل فى السنة الرابعة من كلية الطب ، ولكن ماذا يعنى هذا ؟ إن هذه الأنباء نفسها ليست جديدة عليه فهو على صلة شهرية فى الصباح بعبد المجيد ، شهرية فى الصباح وتكاد

تكون شبه يومية فى مقهى الهيلتون الذى انتقلوا إليه بعد أن هدمت الأنجلو . وكان عبد المجيد قد أقلع عن شرب الخمر وأصبح أقرب ما يكون إلى التصوف ، لكنه كان يحب الجلوس إلى من بقى من أصدقاء الأنجلو فى مقهى الهيلتون ، يتبادلون الحديث ويعلقون على الأحوال الاقتصادية والمالية ، ويفرج المكروب عن كربه ، ويترحمون على الأيام الخوالى ، ويتناقلون أخبار بعضهم البعض .

إنها زيارة غريبة .. ماذا حدث للرجل ؟ إن الزيارة المنزلية لم تصبح سمة العصر . ماذا يريد الرجل ، وفيم هذا الحديث الذى لا جديد فيه ؟ وشرب عبد المجيد القهوة ورشف رشفة من الماء :

— لا تعجب كثيرا من هذه الزيارة .

— البيت بيتك وتشرف فى كل وقت ..

— مرت حوالى عشر سنوات منذ اليوم الذى تفضلت فيه ..

وقاطعه سعدون :

— وبعد لك يا عبد المجيد بك . ما معنى هذا الكلام ؟

— اسمعنى إلى آخر حديثى .

— تحت أمرك ..

— بعد النكبة التى أنزلها بى هارون ظللت قرابة سنتين وأنا لا

مورد لى إلا ما آخذه منك .

ـــ وبعد معك ؟

ـــ اسمعنى . كانت سنوات مظلمة ، وكان الأولاد بالمدارس وبغير ما كنت آخذه منك الله وحده يعلم إلى أى مصير كنت سأرمى . فى السنة الثالثة لاحت لى فرصة تجارية بدت فى أول أمرها ضئيلة الموارد ، فقلت فى نفسى أبلغك وأتوقف عن أخذ المبلغ الشهرى منك ، ولكننى راجعت نفسى . ماذا أفعل إذا لم ينجح المشروع ؟ ورأيت أن أنتظر قليلا . كان المشروع تجارة أخشاب ، وكبر المشروع وأصبح المال الذى أناله منك غير ذى موضوع . لكننى فكرت قليلا .. فوجدت أن المبالغ التى تعطيها لى ، أنت لست فى حاجة إليها ، فقد كنت أعرف أن إيجار أرضك يزيد دائما ، وأنك بعت أرض عابدين فكان همى الوحيد كيف أرد لك فضلك ؟ وجدت أن أحسن ما أستطيع أن أصنعه أن أستمر فى أخذ المبلغ منك وأستثمره فى مشروعى وكأنك شريك معى بما تقدمه لى كل شهر . واعتبرت نفسى كأنى أدخر لك ..

ـــ ماذا ؟

ـــ اسمع .

— لا أسمع شيئا وهل هذا معقول ؟ .

— بل هو المعقول . فى هذه الحقيبة نصف مليون جنيه ، هى أرباحك التى كسبتها مما قدمته إلى فى هذه السنوات .

ووقف سعدون ذاهلا وهو يصيح :

— ماذا تقول يا رجل ؟ هذا المال نتيجة جهدك وعملك .

— ولكنه مالك أنت ، وكل ما فعلته أننى أشركتك معى ..

— وجهدك ؟

— كنت سأقوم به على أية حال ، سواء كان مالك أو لم يكن مالك .. إنه كان يدخل ضمن إيرادى .. أليس كذلك ؟

— كيف أقبل هذا ؟

— هذا ربح حلال ، وأنت تعرف أننى الآن أؤدى الفروض جميعا ، وهذا المال زكاته مدفوعة وعلم الله ليس فيه مليم من حرام .

— لا يمكن أن أقبل هذا .

— لقد كنت كريما وأنت تعطى ، فاسمح لمن أخذ أن يكون على درجتك من الكرامة ..

— أترضاها لى ؟ ..

ـــ أوَ ترضى أنت لى أن أستحل مالك فى أسود أيام عمرى ، ولا أرد لك الفضل بعد أن أكرمنى الله هذا الإكرام ؟ .

ـــ ولكن أنا لم أقدم إليك ما قدمت لتتاجر لى فيه ، بل لم أكن أتوهم هذا ..

ـــ ولكننى أخذت منك ما أخذت فى السنوات الأخيرة كلها ، على نية التجارة بها باسمك ..

ـــ فلو كنت خسرت ماذا كنت تصنع ؟ ..

ـــ لو كنت خسرت لظللت أتقاضى منك ما خصصته لى ، وتكون أنت قد خسرت مالا كنت تتبرع به .

ـــ والله ...

ـــ يا سعدون بك من الكرامة أن تعين الآخرين على حفظ كرامتهم ..

ـــ هذا معنى جميل .

ـــ إنه حق .

ـــ إذن فاسمح لى أن أشعر أننى أسمو إلى المكان الذى وضعتنى فيه .

... ألم تستر فقرى ، وأتحت لى العيش كريما على نفسى

وأولادى وعلى الناس فى سنوات ما كنت أدرى فيها كيف أواجه الحياة ؟ .. أستأذن أنا .. سلام عليكم .

وقام الرجل من مجلسه وسعدون ما يزال فى حالة ذهول .. وقف وهو يقول :

— انتظر .

— لم يبق عندى ما أقوله ..

— هذا المال ليس حقى ..

— بل إنه أقل من حقك .

واتجه إلى الباب وهو يقول :

— سلام عليكم .

وخرج وسعدون فى ذهوله لا يزال ..

ثم جلس وهو يقول فى صوت مرتفع :

— أيمكن هذا ؟ .. هل هناك ناس مثل هذا الرجل ؟ .. اللهم أحمدك يارب .. إنك أرحم بعبادك من أن تتركهم وليس فيهم مثل هؤلاء العظماء .

* * *

٩

انتهى اليوم الدراسى فى كلية الهندسة ، وخرج شهاب من الكلية وبرفقته صديقه حلمى فؤاد واتجها إلى سيارة شهاب ..

ـــ إلى أين يا شهاب ؟

ـــ إلى البيت ..

ـــ ماذا تصنع فى البيت ؟

ـــ ما يصنعه خلق الله فى بيوتهم .

ـــ يا أخى لقد تعبنا اليوم . لماذا لا نتغدى فى أحد المطاعم ونقضى يوما ممتعا .

ـــ لا مانع .. انتظرنى فى السيارة حتى أكلمهم فى البيت ..

ـــ أترى ذلك مهما ؟ .

ـــ حتى لا أشغل والدتى .

ـــ على كيفك . ولو أننى فى بيتنا أعود حينما أريد ، ولا يسألنى أحد أين كنت .

ـــ المسألة ديتها تليفون ..

— على كيفك .

وحين عاد شهاب سأل حلمى :

— أتعرف مطعما معينا ؟ ..

— اطلع ..

وعلى الغداء قال حلمى :

— قل لى يا شهاب ، ألم تتصل فى حياتك بالبنات ؟ ..

— اتصالات عابرة .

— مثل ماذا ؟

— ما تيسر .

— ألم تذهب إلى بيت من بيوت المتعة ؟

— أسمع عنها ولكننى لم أرها .

— هل من المعقول هذا ؟

— أتراه غير معقول ؟ ..

— لو أن الشباب جميعهم مثلك لخربت هذه البيوت ..

— ياليتها تخرب .

— اسكت .. أنت لا تعرف شيئا ..

— أعرف ماذا ؟ ..

ـــ هناك ينسى الإنسان نفسه .

ـــ وينقلب إلى حيوان .

ـــ وما البأس ؟ .. أليست الحيوانية جزءا منا ؟

ـــ جزء بغيض .

ـــ على أساسه تبقى الحياة .. لولاه لفنى البشر .

ـــ هذا فى الزواج ..

ـــ ولكننا قبل الزواج شباب .. ولا بد أن نجرب الحياة .

ـــ أتظن ذلك ؟

ـــ بل أنا واثق ..

ـــ أذهبت أنت إلى بيت من هذه البيوت ؟ .

ـــ مرتين فى حياتى ، وهذا لقلة المال طبعا ، فلو كان معى مال لذهبت إليها يوميا .

ـــ أين هذا البيت ؟

ـــ ما رأيك نذهبُ الليلة . هل معك فلوس ؟

ـــ معى ..

ـــ إذن نلتقى فى التاسعة ونتمشى بالسيارة قليلا ثم نذهب ..

ـــ والله لا مانع ..

والتقيا ، وذهبا وواجه شهاب حياة جديدة عليه ، سعد ببعضها وتقزز من بعض آخر فيها ..

النساء عرايا ، وصاحبة البيت عجوز تفعل بوجهها الأفاعيل لتبدو فى غير سنها ، وفى البيت صمت كئيب على غير ما تصوره الأفلام المصرية ، الهمس هو صوت المتحدثين ، والغمز بالعين الواحدة إشارات كأضواء خجلى لا تنطفئ ولا تنير .. وقلة قليلة من رجال لا يعرف أحدهم الآخر .. وإنما كل منهم فى شأن يغنيه ، يجلس فى صحبة كأس يحسوها فى توتر شديد ..

ألح حلمى على شهاب أن يشرب كأسا من الويسكى ، وأطاعه آخر الأمر ولكنه لم يكمل الكأس ، فذوقه رفض طعم الشراب و لم يجد له تلك النشوة التى سمع بها .

وحين خرج من البيت كان يشعر بشيء من الخجل والغضب من نفسه .

* * *

يحرص (فائق) على الذهاب إلى الكلية كل يوم رغم الزحام الشديد ، ورغم أنه لا يستفيد شيئا من المحاضرات التى يلقيها الأساتذة ، فقد كان يعتمد فى نجاحه على مذاكرته هو فى بيته .

وهو فى ذلك مثل الأغلبية الكاثرة من الطلبة ، ولكنهم مع ذلك يصرون على الذهاب إلى الكلية ولكل من الطلبة سبب خاص به فى ذهابهم إلى الكلية ، فأغلبهم لا يصيب شيئا من الفائدة بالمحاضرات ، بل إن كثيرا منهم يذهب إلى الكلية ولا يدخل إلى المحاضرة ويقول قائلهم :

ـــ إن وجدت الكرسى الذى أقتعده ، فلن أجد الهواء الذى اتنفسه . ولكن الطلبة مع ذلك يحرص أغلبهم على الذهاب إلى الكلية . وأين سيجد كل هؤلاء الأصدقاء ومن ينادمهم وينادمونه ، وأين سيجد الفتيات بهذه الأعداد الهائلة .. ولكل من الطلبة فتاة من زميلاته يعجب بها ، وسواء لديه إن كان عنده أمل فى صداقتها أو لا أمل له .

وكان فائق من هؤلاء الكثرة الذين يحرصون على الذهاب إلى الكلية ، وكان له فى فتاة بذاتها مأرب ، ولكنه ما كان يدرى كيف يتقرب منها أو يرمى شباكه عليها . فقد كانت صلاته الاجتماعية محدودة ، وكانت المآدب التى يقيمها أبوه لا يأتى إليها من الفتيات من هن فى مثل سنه ، وإنما كن نساء فى سن أمه ، فإن صغرنها فبسنوات قليلة لا يتصور أن تكون واحدة منهن على علاقة به .

وفى الكلية أغلب الفتيات يتجمعن بعيدا عن الطلبة ، ولم يكن يتصور أن يقتحم عليهن تجمعهن ويخاطب واحدته التى يعجب بها كل الإعجاب . وكل ما استطاع الوصول إليه بعد جهد جهيد أن اسمها إلهام ، وحتى لم يعزف اسم أبيها .

وكان فائق يذهب إلى المكتبة كثيرا بعد انتهاء المحاضرات ليحصل على بعض مراجع ، فقد كان حريصا أن يكون نجاحه بتقدير يشرفه .

دخل إلى المكتبة ووجد فيها إلهام فخفق قلبه .. إنه محقق فى يومه هذا ما عجز عن تحقيقه منذ التفت قلبه إليها .. عثر على المرجع الذى جاء من أجله ووضعه أمامه وفتحه ولم يستطع أن يقرأ منه شيئا ، فقد كانت عيناه على إلهام أن تخرج وهو مستغرق فى القراءة . الكتاب يستطيع أن يعود إليه فى أى وقت ، ولكن هذه الفرصة هيهات أن يجعلها تفلت من يديه . قامت إلهام لتعيد ما معها من مراجع فقام من فوره وأعاد المرجع لم يقرأ منه حرفا . وخرج مع إلهام من المكتبة .. كانت ساحة الجامعة تكاد تكون خالية .. ومشت إلهام فتبعها لا ينطق بكلمة حتى إذا بلغا خارج الجامعة وقفت إلهام تبحث عن سيارة أجرة ، وحينئذ تجرأ وأقدم ..

— أين سيارتك ؟

— فى الإصلاح .

— هل إذا عرضت أن أوصلك أكون قد تجاوزت مكانى ؟ ..

— مطلقا .. أنت زميلى ، وأى تجاوز أن يعين زميل زميلة له ؟

— تفضلى .

وفى السيارة وجد نفسه يقول دون ريث تفكير :

— أنت لا تعرفين كم مر بى من زمن أنتظر هذه الصدفة ..

— بل أعرف .

— تعرفين ؟

— منذ أول يوم نظرت فيه إلىّ ..

— كيف .. هذا غير معقول .

— بل هذا هو المعقول ، فالفتاة منا تحس بالنظرات حتى وإن لم ترها .

— إذن ؟

— إنك فى كل يوم تتحرى أن تقف على مقربة منى ومن زميلاتى ونظرك موجه إلىّ .

— لم أجرؤ أن أتقدم إليكن .

ــ وأنا لم أعرف كيف أشجعك .

ــ بنظرة بابتسامة ، أو بشبه ابتسامة .

ــ أترضى لى أن أكون البادئة ؟

ــ مجرد إشارة عابرة .

ــ لا يعقل أن تكون الإشارة الأولى منى أنا .

ــ أعرف أن اسمك إلهام ، عرفته وأنا أسمع زميلاتك ينادينك .

ــ و لم تحاول أن تعرف بقية اسمى ؟

ــ خشيت على سمعتك .

ــ إلهام وجدى .

ــ اسم الوالد ؟

ــ طبعا .

ــ ظننت أنه قد يكون اسم الأسرة .

ــ اسم الأسرة زين الدين .

ــ وأنا فائق .

ــ فائق هارون بركات .

ــ لم أفرح بسماع اسمى مثل هذه اللحظة .

ــ لا يا شيخ .

ـــ تعرفينه بالكامل .

ـــ هذا أمر ليس صعبا .

ـــ كيف عرفته ؟

ـــ من زملائك .

ـــ أنا لا أعرف زميلات .

ـــ لماذا ؟

ـــ لا أدرى ، ربما كنت خجولا أكثر مما ينبغى .

ـــ شيء غريب فى زماننا هذا .

ـــ زوار بيتنا كثيرون ، ولكنهم يجيئون لنا فى أعمال ولا معنى لوجودى معهم . وفتيات أسرتنا قليلات جدا ، فأنا لا أعرف إلا ابنة خالتى هناء ، وليس لى عم ولا بنات عم فدائرتى الاجتماعية ضيقة جدا . وأنا طالب لا بأس بى أنال تقديرا دائما فى كل عام .

ـــ أما هذا فأعرفه .

ـــ أنت ما أخبار دراستك ؟

ـــ طالبة من درجة مقبول ، ولكنى أنجح وراضية بقسمتى كل الرضى والحمد لله .

ـــ نعمة .

— أراك تسير ولا تسألنى عن عنوانى ، ومع ذلك فأنت فى الطريق الصحيح .

— إن كنت خجلت أن اتعرف بك ، فإننى لم أخجل أن أتبعك بسيارتى كلما خرجنا معا من الجامعة .

— معقول !

— هذه أول مرة أراكِ فيها بالمكتبة .

— لأنها أول مرة أذهب فيها إلى المكتبة .

— ماذا كنت تريدين منها ؟

— هذا شأنى .

— هل اسم الكتاب سر ؟

— ليس سرا . وإنما أنا ذهبت حتى يخف الزحام وأجد سيارة أجرة .

— فقط ؟

— ولأقرأ بعض مواد فى القانون التجارى لم أفهمها من شرح الدكتور طلبه .

— وفهمتها ؟

— أوتريد أن تبحث عن حجة لتذاكر معى ؟

ـــ اسمعى .. أرجوك أن ترفقى بى فأنا خجول كما ذكرت لك ، وأنا فى نفس الوقت معجب بك إعجابا شديدا .

ـــ أشكرك .

ـــ بل أنا الذى أشكرك .

ـــ أتعرف لماذا أشكرك ؟

ـــ ربما لإعجابى بك .

ـــ لأنك اخترت الكلمة المناسبة ، ولم تقل الكلمة التى يستسهل كل فتى أن يقولها لفتاة .

ـــ أنا صادق دائما ، أو على الأقل أحاول أن أكون صادقا .

ـــ لقد وصلنا ، ومن حقك على أن أقول لك إننى أيضا معجبة بك .

ـــ بماذا ؟

ـــ كنت أقدر فى نفسى محاولتك التقرب منى وتعففك عن فرض نفسك على .. أما الآن وبعد حديثى معك .. فأنا أيضا أحمل لك نفس الإعجاب الذى تحمله لى .

* * *

١٠

قال سعدون :

ـــ يا هارون أنا نويت إن شاء الله أن أبيع أرضى وأرض زوجتى .. وصمت هارون قليلا . إنه سيخسر لا شك ، ولكن المبالغ التى تعود عليه من الزراعة جميعا أصبحت ضئيلة هينة لا قيمة لها بجانب ثروته التى أصبحت شامخة ، وإن كان قد جمعها بكل الوسائل التى لا تنتسب إلى الشموخ . وبيع سعدون للأرض أمر طبيعى فقد علت به السن ، فمن الطبيعى أن يضمن انتقال الثروة إلى بنتيه فهو لم يرزق الولد .

ـــ ابن عطا الله الذى اشترى أرض حماتك من أبيها ، أنت تعرفه ؟

ـــ نعم نصيف ، إنه ولد طيب .

ـــ جدا ، وإلا لانتهب الأرض التى اشتراها أبوه شراء صوريا من عثمان بك الله يرحمه ، فثمن الأرض اليوم تضاعف عشرات

الأضعاف .

ـــ طبعا ، وما شأن الحاج وافى ؟

ـــ كبر فى السن ، وأخشى أن يختاره الله وهو طبعا ما زال على وفائه .

ـــ والأربعة الذين اشتروا الأرض من والدك ؟

ـــ كلهم على قيد الحياة ووافقوا على البيع .

ـــ الحمد لله ، وهل جاءك فى الأرض ثمن ؟

ـــ نعم ثمن لا بأس به . طبعا أنت لا تفكر فى الشراءَ ؟

ـــ مطلقا ، والواقع أن الزراعة كلها لم تصبح موردا هاما من مواردى المالية .

ـــ أعلم هذا يا هارون ، ويا ليتك بقيت فى الزراعة .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنت تعمل فى كل شىء ، فى المقاولات ، فى التصدير والاستيراد ، فى التجارة الداخلية والخارجية .. لقد أصبح المال بالنسبة إليك غاية لا وسيلة .

ـــ وهل فى هذا عيب ؟

ـــ العيب ليس فى العمل وإنما فى طريقة العمل . والمال عظيم

طالما بقى وسيلة ، وكارثة حين يصبح غاية .. فالأرقام لا تنتهى ، والمنهوم للمال يرتكب كل شيء ليرضى جشعه ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى معاملتك مع الآخرين . أنت لا تراعى الله ، وما دمت لا تراعى الله فأنت لا تفكر بإنسانية فى معاملتك ، لا يهمك أن تخرب بيوت الناس وتمحقهم محقا لتنال أنت بضعة نقود .

ـــ هذه هى قوانين السوق .

ـــ ألا تفكر مطلقا فى قوانين الله .

ـــ والله إن جئت للحق ، إن هذه الفكرة لا تخطر على بالى مطلقا .

ـــ ومع ذلك حلفت بالله فى أول جملتك .

ـــ تعود سخيف ..

ـــ أليس هو خالقنا ؟

ـــ أشك فى هذا .

ـــ فمن الخالق ؟

ـــ لا أدرى ، ربما كانت الطبيعة .

ـــ كلام فارغ . الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة .

ـــ ما تعنى ؟

ـــ أعنى أن المعادلات الكيماوية التى تنتسب للطبيعة ليس لها إرادة ، فإذا وضعت أكسوجين مع هيدروجين لا بد أن ينتج ماء . وإذا أوصلت سلكا كهربائيا سالبا بآخر موجب لا بد أن تنتج قوة كهربية .

ـــ وماذا فى هذا ؟

ـــ إن الله صنعها هكذا ، ولكنه أبقى لنفسه الإرادة فى أشياء لا تستطيع الطبيعة أن تقترب منها .

ـــ مثل ماذا ..؟

ـــ مثل إنجاب البنين . كان المفروض أنه ما دام رجل سليم قد تزوج من فتاة سليمة فلا بد أن ينجبا أطفالا . ولكن هذا لا يحدث ، ولا يأتى الأطفال إلا بقوة إلٰهية عليا .. ومثل نزول المطر ، فقد كان المفروض أنه ما دام البخار قد تصاعد إلى السماء فلا بد أن ينزل المطر . ولكن هذا لا يحدث ، فإن الله ينزل المطر حينما يشاء . والأمثلة على وجود إرادة عظمى وقوة إلٰهية لا يحيط بها البشر .

ـــ لقد تقدم العلم كثيرا .

ـــ ولكنه عجز عن أن يجعل العقيم منجبا ، وعجز عن دفع السيل الذى لا يبقى ولا يذر أو إنزال المطر .. وكل تقدم علمى كشف عن قوى إلٰهية كامنة فى الطبيعة يتيح الله للبشر أن يتعرفوا عليها بإرادته وفى اللحظة التى يريدها . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

ـــ أنا لا أفكر فى هذه الأشياء .

ـــ لقد عجز رئيس أمريكا أكبر دولة فى التاريخ أن يمنع السيول أن تصيب بيته هو . لقد عجز علم دولته التى وصلت إلى القمر أن يواجه إرادة الله فى السيول أو الجفاف أو البرد أو الحر أو الميلاد أو الوفاة ، وتأتى سعادتك تقول الطبيعة هى التى خلقت . يا لها من خالق عاجز مخلوق بلا عقل ولا تفكير ! إن هذا العالم يستحيل أن يديره إلا قوة عليا من التفكير والتدبير ، فالذى خلق الضوء خلق العينين ، والذى خلق الحديث خلق الأذنين.أى طبيعة هزيلة هذه التى تفكر فيها . كم أنت مسكين يا بنى .

ـــ المهم أننى خلقت .

ـــ وأنت أيضا ستموت . فلو أن الطبيعة هى التى خلقتك أتراها أيضا هى التى ستميتك ؟ .

ـــ لا أدرى .

ـــ فكر قليلا . هل للموت معادلة كيماوية .. أنت ترى الطفل يموت والصبى يموت والشاب يموت ، ويبقى الشيخ العجوز المريض ، وترى كما قال شوقى :

وقد ذهب الممتلى صحة   وصح السقيم فلم يذهب

ـــ إن كل هذا الذى تقول لا يشغلنى فى كثير أو قليل .

ـــ لأنك بعيد عن الله كل البعد . دينك وإلـهك المال وحده . ولا شريك له حتى حبك لأبيك وأمك لا وجود له ، بل حبك لأبنائك الذى يجب أن يكون غريزيا بالسليقة ضئيل عندك بجانب حبك للمال .

ـــ العالم كله مهموم بالمال وبالتقدم العلمى .

ـــ إن العالم كله لم يستطع أن يصل إلى سر الروح ، وقد أنفق الاتحاد السوفييتى المليارات من الأموال ليصلوا إلى سر الروح حتى يدللوا به على صحة مذهبهم الإلحادى ، وما زال سر الروح مستغلقا على العالم أجمع . ألا إنها من أمر ربى .

ـــ أنت غاضب علىّ .

ـــ أنا حزين لأجلك ، وحزين لأجل أبنائك الذين لا يسمعون اسم الله فى بيتهم إلا فى الصلاة التى تقيمها أمهم .. أنجاهم الله من كفرك ..

* * *

١١

دق جرس التليفون فى بيت هارون ، ورفعت حميدة السماعة :

ـــ ماما .

ـــ شهاب ؟

ـــ لا ، أنا الباشمهندس شهاب .

ـــ صحيح ؟

ـــ وفائق أيضا أصبح الباشمحاسب فائق .

وفى طفر من الفرح غامرة قالت حميدة :

ـــ صحيح ؟ الحمد الله يا ابنى.ألا تأتى لأقبلك ؟ وأين أخوك ؟

ـــ أنا سأقضى اليوم مع إخوانى ، وسأتأخر فى المساء . أما فائق فقد طلب منى أن أخبرك أنه سيتغدى خارج البيت ولن يتأخر بعد ذلك .

ـــ ألم يكن من المعقول أن تأتى أنت وأخوك لنفرح بكما أنا وأبوك .

ـــ أبى مشغول ، المهم أن تعرفى أنت ، وقد كلمتك بعد أن عرفت النتيجة مباشرة لأنى أنا وفائق نعرف أن الأمر يهمك ..

ـــ يهمنى ؟ إنه أملى الذى أعيش له وبه .

ـــ الحمد لله . قولى أنت لأبى ، وما أظن الأمر يهمه كثيرا .

ـــ أهذا كلام ؟

ـــ المهم لا تنشغلى إذا تأخرت قليلا فى المساء ..

ـــ ما تشوفه يا ابنى ، الأمر لله .

ـــ مع السلامة .

ـــ مع السلامة .

* * *

لم يبد هارون الفرح الذى ينبغى لأب تخرج ولداه اللذان ليس له غيرهما . وكأن الأمر كان مفروضا لا شك فيه ، وألمّ بقلب حميدة بعض الألم من استقبال هارون لخبر هو فى عرف الأسرات من أهم الأخبار التى تسعد لها الأسر جميعا .

تناول هارون غداءه فى سرعة و لم ينم نومة القيلولة ، وخرج

وهو ينبئ زوجته أنه سيتأخر فى المساء . ولم تسأله لماذا فهكذا تعودت .

وأمسكت التليفون لتخبر أختها بنجاح ابنيها وبشَّرتها وجيدة بأن هناء أيضا حصلت على ليسانس الحقوق ، وأن أيمن نجح وأصبح فى السنة النهائية من نفس الكلية . وكان الدكتور أمجد فى البيت ، وكان سعيدا غاية السعادة بنجاح ابنته وابنه . وهنّأ حميدة بنجاح ولديها ، واستردت حميدة فرحتها التى كان استقبال هارون قد خفف منها .

وراحت حميدة تكلم أبويها وصديقاتها جميعا . وفجأة تذكرت أنها لم تكلم الحاج حامد فأدارت القرص وكلمته فى البلدة ، فكانت سعادته الواضحة من صوته أعظم ألف مرة مما رأته من عدم اهتمام هارون بالخبر . وكلمتها حماتها الحاجة توحيدة وهى تقول :

— لو كنت أعرف كيف أزغرد لزغردت . ولكن انتظرى ! يانبوية ، يا أم الهنا ، يا سعديه ، زغردن يا بنات واملأن الدنيا زغاريد .

وسمعت حميدة زغاريد الخادمات فى التليفون فأحست قلبها

يزغرد معهن وهكذا ملأت السعادة جوانح جميدة فقد عبرت هذه الزغاريد عن كثير من خلجات الفرح التى يدق بها فؤادها .

و لم تمض ساعات حتى جاءتها أختها وجيدة وابنتها هنــاء ومعهما صناديق من الحلوى ، وأقبلت الكثيرات من صديقاتها يحملن أيضا ما يجاملن به حميدة صديقتهن الطيبة الحبيبة إليهن بخلقها السلس وصداقتها الحنون الخالصة بلا شوائب .. فقد كن يحملن لها الود الصادق وإن كانت منهن من تكنّ لها بعض الحسد على الغنى الفاحش الذى أصابه زوجها ، إلا أن أولئك كن يجهدن غاية الجهد أن يخفين حسدهن حتى كن يبدين أكثر حبا لها مــن المخلصات اللواتى لا يحملن لها إلا الحب الخالص الكريم .

و لم يسكت التليفون عن الرنين ممن لا يستطعن المجئ يقدمن التهنئته ويسعدن بالزيارة فى الغد .

وطال بالسيدات الحديث حتى أوشك موعد العشاء أن يحين ، فبدأن فى الانصراف و لم يبق إلا وجيدة وابنتها هناء فقد بقيتا قليلا ، ثم قالت وجيدة :

ــ نقوم أنا وهناء فإننا الليلة سنحتفل بالنجاح ، وقد أعددت وليمة إذا كان هارون سيتأخر فلماذا لا تأتى معنا يا حميدة ؟

ـــ هارون فعلا سيتأخر وكذلك شهاب ، ولكنى أعتقد أن فائق فى طريقه إلينا وسأكرمه بعشاء فاخر .

وقبل أن تكمل جملتها دخل فائق وسعادة الدنيا كلها فى وجهه وعينيه ، واستقبلته خالته وهناء بالتهليل وحين استقر بهم المجلس قالت هناء :

ـــ هذه الفرحة الكبرى التى فى وجهك وعينيك فرحة النجاح وحده ؟

ـــ أليس التخرج جديرا بهذا .. ألم تفرحى أنت بالتخرَج ؟

ـــ أنا كنت واثقة ، وكل ما كان يهمنى هو درجة التخرج .

ـــ جيّد .

ـــ خسئت ، بل جيّد جدا .

ـــ ومن سمعك وشرفك أنا أيضا ، بل وشهاب أيضا . ما درجة أيمن ؟

ـــ جيّد .

ـــ نعمة .

ـــ ولكنى مازلت مصرة أن فى عينيك مع فرح النجاح فرحا آخر .

ـــ ما سر إصرارك هذا ؟

ـــ أنا وأنت كنا ننال تقديرا فى جميع سنوات الدراسة ، فنجاحنا بدرجة جيد جدا أمر متوقع ، وهذه السعادة التى تتناثر حولك وراءها سر آخر .

ـــ ولماذا تحاولين أن تكشفى أسرارى ؟

ـــ فضول المرأة .

ـــ ألا يرده اقتران الليسانس بدرجة جيد جدا ؟

ـــ تظل المرأة هى المرأة .

ـــ ولن أشفى فضولك هذا .

ـــ ما تلبث الأسرار أن تنكشف وتذيع وتصبح على كل لسان ، والذى لا يشترى يتفرج .

ـــ انتظرى حتى تشترى وتتفرجى .

ـــ ألا تنال ابنة خالتك حق السبق ؟

ـــ كأنك نلت الليسانس فى الصحافة .

ـــ والمحامية أيضا تبحث عن الحقيقة .

ـــ لقد بدأت الممارسة مبكرة جدا .

وقاطعتها وجيدة :

ــ كعادتكما لا ينتهى لكما نقاش.قومى يا بنت .

وقامت هناء :

ــ أيقال للجيد جدا يا بنت ؟

ــ وإن أصبحت رئيسة النقض أنت عندى بنت .. هيا حتى لا نتأخر عن أبيك وأخيك .

وقامتا .

وما لبث أن أعد العشاء وجلست إليه حميدة وفائق . لكنها لاحظت أنه غير مقبل على الطعام إقباله الذى تعودته منه ففاجأته :

ــ فائق هل تعشيت ؟

وأرتج على فائق لحظات ، ثم ما لبث أن تمالك نفسه وهو يقول :

ــ أنا .. أبدا .. أبدا والله .

ــ بل تعشيت .

ــ أبدا .

ــ المهم قم بنا .

ــ ألا تكملين عشاءك ؟

ــ وحدى .. أنا شبعت .

— لم تأكلى .

— ربما أكون أنا الأخرى قد تعشّيت .

وضحكت وضحك وقاما . وذهبا إلى غرفة المعيشة وجلسا أمام التليفزيون . وكان يعرض به فيلم عربى قديم ولكنهما كانا مستمتعين به ، وقبل أن ينتهى الفيلم دق جرس التليفون . ونظر كلاهما إلى الآخر ، وكان فائق أسبق إلى التليفون .

— بيت هارون بك بركات ؟

— نعم من يريده ؟

— هنا قسم قصر النيل . حضرتك هارون بك ؟

— لا أنا ابنه .

— ألك أخ اسمه شهاب ؟

— نعم ماله ؟

— عندنا وليس معه بطاقة ، نرجو أن يأتى أحد من عندكم .

— هل هناك شىء ؟

— من يأتى سيعرف .

— شكرا !

ووضع فائق السماعة وهو فى حالة ذهول تام وقد امتقع وجهه

وجف فمه حتى لا يستطيع أن ينطق ، وذعرت الأم وسارعت إليه ..

— ماذا .. ماذا يا فائق .. ماذا حدث ؟

وجمع فائق الكلمات ونطقها بصعوبة :

— شهاب فى القسم .

ودقت صدرها وارتمت إلى أقرب كرسى منها .

— لماذا ، ماذا فعل ؟

— لا أدرى .. لا بد أن أذهب إليه .

— تذهب إليه وحدك ؟

— أبى غير موجود ، ماذا أصنع ؟

— انتظر .

وطلبت الدكتور أمجد وأجابها ، وروت له ما حدث .

— فائق عندك ؟

— نعم .

— يأتى إلى الآن وسأذهب معه .

وفى القسم قدم الدكتور أمجد نفسه كما قدم فائق ، وسأل وعرف كل شىء .. لقد هاجم بوليس الآداب بيتا وكان به

شهاب . وقال أمجد :

ـــ لا أظنكم تحتجزونه .

ـــ لو كان معه بطاقة ما استدعيناكم .

ـــ معى بطاقة .

ـــ إذن سنفرج عنه فى الحال .

وخرج ثلاثتهم وركبوا السيارة صامتين لم ينطق أحد بكلمة ، وحين بلغوا منزل الدكتور أمجد نزل دون تحية . وسار أمجد فى طريقه ولأول مرة تكلم شهاب :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى البيت .

ـــ أمر لآخذ سيارتى .

ودله على الطريق . ونزل شهاب وقال لفائق :

ـــ أنا لن أذهب إلى البيت .

ـــ أنا تركت ماما بين الحياة والموت .

ـــ طمنها أنت.أنا لن أذهب إلى البيت .

ـــ إلى أين تذهب الآن ؟

ـــ اطمئن .. لاتخف .

وتركه دون أن يكمل الحديث ، وركب سيارته وسار بها وفائق مذهول فى مكانه .

* * *

لا أمل لى إلا هو . أنا الآن أريد مكانا أختفى فيه عن الوجوه اللائمة . وأريد الغفران وأريد الحب . قد أجد هذا من أمى وحدها ، ولكن سأجد كل ما أكره فى وجوه الآخرين .

* * *

١٢

كان الحاج حامد نائما هو وزوجته الحاجة توحيدة . وفى سنهما هذه لا يكون النوم عميقا ، فلم يكن عجيبا أن يسمعا طرقا خافتا واضح الاستحياء على الباب الخارجى للمنزل .

وقام إلى الباب الحاج حامد وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويدعوه أن يكون الطارق يحمل خيرا أولا يحمل سوءا على الأقل .

وفتح الباب وما إن رأى شهاب حتى صاح به فى وهن وخوف ..

ــ شهاب ، أهلا يا بنى ! خيرا إن شاء الله .

وفى لعثمة قال شهاب :

ــ خيرا إن شاء الله يا جدى .

ــ تعال .. ادخل .. ماذا بك ؟ اجلس .

ــ لا تخف يا جدى كلنا بخير .

— انتظر حتى أطمئن ستك .

— لا تجعلها تقوم من فراشها ، أريدك وحدك .

— حاضر يا ابنى .

وعاد الحاج حامد إلى حفيده .. وروى شهاب على جده كل شيء فى صراحة وشجاعة ، وأطرق الحاج حامد قليلا ثم رفع رأسه إلى شهاب .

— غفور رحيم يا بنى .

— لا أحب أن أرى أحدا الآن إلا أنت ، فعندك أجد الحب الذى لا أجده من أحد إلا عند أمى .

— غفور رحيم يا بنى .

— أريد أن أبقى عندك بضعة أيام .

— أهلا بك لبضعة أيام وبضعة اشهر وبضع سنوات ، هذا بيتك يا ابنى .

— أعرف ذلك ، لا تقل شيئا لستى .

— سأقول إنك مختلف مع أبيك ، وربنا يسامحنى على الكذب .

— هكذا أحسن .

— هل تعرف أمك أين أنت ؟

ــ لا أحد يعرف .

ــ هذا غير معقول .

ــ لا أريد أن أرى أمى ، فستكون حزينة حتى وإن غفرت لى .

ــ يا ابنى أنت لا تعرف قلب الأم ، إنها الآن فى حالة جنون وهى لا تستحق منك هذا .

ــ إذن أخبرها .

* * *

حين وصل فائق إلى البيت لقفته أمه على الباب .

ــ خيرا يا فائق ، أين شهاب ؟

ــ لا شىء ، شهاب بخير و لم يفعل شيئا ..

ــ فلماذا كان فى القسم .

ــ مسألة بسيطة .

ــ ماذا ؟

وصمت فائق حائرا ، إن قال حادثة سيارة لازداد ذعر أمه .. جلس وأطرق .

ــ أنطق .

ـــ مجرد عراك بينه وبين أحد الضباط .

ـــ هكذا من غير مناسبة ؟

وجاء هارون من غرفة النوم على صوت ابنه وأمه .

ـــ قل الحقيقة .

ـــ ماذا أقول يا أبى ؟

ـــ الحقيقة .

وقالها بعد أن فكر أنه إن لم يقل هو الحقيقة فسيقولها الدكتور أمجد .. قالها وهو خزيان وكأنه هو الذى ضبط ..

وكان رد الفعل عند أمه صمتا متألما ودمعات غزيرة ، أما هارون فكان شأنه عجبا . لقد قعد بعد أن كان واقفا وراح يضحك فى قهقهة .. ثم قال وهو يضحك ..

ـــ واين هو الآن ؟ ألا تعرف ؟

ـــ رفض أن يعود معى إلى البيت ، ولا أدرى أين ذهب .

وقالت حميدة :

ـــ هل هذا معقول ، ألا يأتى لنطمئن عليه على الأقل .

وقال فائق :

ـــ قال لى طمئن أمى ، ورفض أن يقول لى أين سيذهب .

وقال هارون ضاحكا :

ــ وأين تظنانه سيذهب ؟ .. هيا لننام .

وصرخت حميدة وهى تدق صدرها :

ــ أنام .. أنام وأنا لا أعرف اين ابنى وما حالته ؟

شهاب يختشى من ظله .. ربنا أعلم بحاله الآن .

وضحك هارون وهو يقول :

ــ لقد أثبت أنه لا يختشى ولا يحزنون .. قومى نامى فقد اطمأننا عليه .

ــ أبدا لا يمكن أنام .

ــ إذن أنام أنا ، وأنت يا فائق ألا تنام ؟

ــ أنا سأبقى مع ماما .

ــ أنت حر .

وعاد هارون إلى غرفة نومه .

* * *

دق جرس التليفون فى بيت هارون ، وانتفضت إليه حميدة واختطفت السماعة .

ــ أهلا يا حاج .. خيرا ؟

وجاءها صوت الحاج حامد :

ـــ اطمئنى .. شهاب عندنا .

ـــ الله يطيل عمرك يا حاج ، الله يخليك .

ووضعت السماعة وقال فائق :

ـــ الحمد لله .

ـــ الآن ننام .

ـــ تصبحين على خير .

ـــ لقد أصبحنا فعلا أو نكاد ..

ـــ سأذهب إليه .

ـــ طبعا .

* * *

لم يكن هارون مرحبا بالذهاب إلى بيت أبيه ، ولكن حميدة فى هذه المرة قالت له فى حزم :

ـــ إن لم تذهب معى فسأعود من البلد إلى بيت أبى ..

ولأول مرة يسمع هارون هذا التهديد ، فلم يجد مناصا من الذهاب .

* * *

وفى السيارة اتفق ثلاثتهم ألا يفاتحوا شهـــاب فى الموضوع

مطلقا .. وحين وصلوا رحب الحاج حامد ترحابا شديدا بحميدة وبفائق ، وسلم سلاما فاترا على هارون أما الحاجة توحيدة فقد رحبت بالجميع .. وقال شهاب :

ـــ كيف استطعت المجئ يا أبى ؟

ـــ أمك يا سيدى .

ـــ لقد توقعت أن تقول هذا .

وقال هارون :

ـــ المسألة لا تستحق هذه الهوسى .

وقال الحاج حامد :

ـــ هل من الهوس أن تزور أباك وأمك ؟ .. يا خسارة !

ـــ مشاغلى يا أبى لا تتصورها .

ـــ أعرف أنك والحمد لله قد أصابك السعار .

وقالت الأم :

ـــ أتكتفى بأن ترسل إلينا مالا فى كل شهر ولا تأتى ؟

ورأى الحاج حامد الدهشة على وجه هارون . لم يستطع هارون أن يخفيها بل قال فى لعثمة ..

ـــ مالا .

وقالت الأم فى سذاجة :

ــ نعم ، الراتب الذى ترسله كل شهر . أتظن أن الأم والأب يكفيهما المال ..

ــ نعم .

ــ ألم تسمع ؟

ــ آه. إن مكتبى يرسله كل شهر ..

وصمت وقد حسب أنه قد خرج من المأزق ، ولكن عقله كان حائرا حيرة كبرى .. إنه واثق أنه لا يرسل شيئا ، وواثق أن مكتبه لا يرسل شيئا ، فما هذا المال الذى تتكلم عنه أمه ؟

وتغير الموضوع وتناولا الغداء ، وحين أزمع هارون العودة إلى القاهرة نظر إلى شهاب ..

ــ أتأتى معنا ؟

وأجاب شهاب فى حسم :

ــ سأبقى بضعة أيام مع جدى .

ــ على كيفك .

١٣

فى الصباح ترك الحاج حامد حميدة نائمة وخرج إلى حجرة الاستقبال الملحقة ببيته ، وأرسل رسولا إلى مختار عمر يطلب منه أن يجئ إليه بأسرع ما يستطيع . وما أن انتهى مختار عمر من أعماله العاجلة حتى سارع إلى الحاج حامد . وتأكد الحاج حامد أنه منفرد بمختار وسأله :

ــ مختار ، أنت تعرف أننى أتلقى فى كل شهر مبلغا يصل إليوم إلى ستمائة جنيه .

وأدرك مختار ما يريده له الحاج حامد فأطرق فى حيرة واشتد به وجيب قلبه وامتقع وجهه ، فأوشكت ظنون حامد أن تصبح مؤكدة . وبعد لحظة مريرة طويلة قال مختار !

ــ نعم .

ــ كنت حتى الأمس واثقا أن هارون هو الذى يرسل لى هذا المبلغ .

— وما الذى جعلك تشك فى ثقتك هذه ؟

— هارون نفسه ، لقد زارنى بالأمس بعد سنوات طويلة من الانقطاع عن زيارتى .

— وهل نفى أن يكون هو مرسل المرتب الشهرى ؟

— لم ينف ، وإنما دهش ووضحت الدهشة على وجهه ، ثم ما لبث أن استرد دهشته عن وجهه وزعم أن مكتبه يرسل المبلغ فى كل شهر ..

— ولماذا لم تصدقه ؟

— صدقته أمه فهى التى ذكرت أمر هذا المبلغ ، أما أنا فلم أصدق ، وأريد أن أعرف الحقيقة منك ..

وأطرق مختار طويلا ثم انفجر :

— لقد ضاق صدرى بهذا السر ، وإننى أشعر أن فى كتمانه ظلما لصاحب الفضل وتكريما لمن لا فضل له .

— إذن ؟

— الحقيقة أن هارون لا يرسل شيئا .

وراح مختار يروى على الحاج حامد القصة منذ كلفه ببيع الكردان حتى يومهم هذا ، وكان كلما أوغل فى الرواية ازداد

حزن الحاج حامد وراحت نفسه تتمزق كل ممزق . أكان يعيش هذه السنوات على الصدقة وابنه على هذا الغنى الفاحش ؟ أرضى له ابنه هذا ؟ .. فما قيمة هذا الابن إلا أن يكون حزنا لوالديه وعبئا على الحياة جميعها . وجمع الكلمات المفككة على لسانه ليسأل مختار :

ـــ هل يعرف هارون شيئا مما رويته لى ؟

وقال مختار فى لعثمة :

ـــ لا أظن .

ـــ لا فرق ، ربما كان علمه أعظم سفالة من عدم علمه . ولكن الجحود والانحطاط وضياع الكرامة يحيط به من كل جانب .

ـــ كان لا بد أن أخبرك .

ـــ لقد أسأت إلىّ بكتمانك .

ـــ أنا لم أقصد .. وإنما خشيت أن أراك فى الحالة التى أنت عليها الآن .

ـــ كان الموت جوعا خيرا مما ألاقيه الآن .

ـــ نسيبك وقام بواجبه .

— ليس واجبه أن يطعمنى ويكسونى ولى ابن وهبت له كل شىء ، وأسلمت له أمرى وأمر أمه .

— لا أجد ما أقوله .

وصمت الحاج حامد واحترم مختار صمته .. النــار والألم والضياع يطبقون على فؤاده حتى لقد كان يلقف أنفاسه من الهواء اجتذابا .. وطال الصمت .. ماذا يصنع ؟ كيف يرد لسعدون هذا الدين ؟ .. وهل يقبل سعدون أن يتقاضاه ؟ أيكون سعدون أشفق عليه من ولده عصارة حياته ودمه وقلبه وماضيه وحياته وما بقى له من أيام على سطح الحياة ؟ كيف تستطيع الحياة أن تصنع شخصا فى عظمة سعدون وتصنع فى نفس الوقت شخصا فى انحطاط هارون ؟ .. كيف تسع الدنيا قلبا فيه هذه الرقة التى ينعم بها سعدون وتسع معه قلبا فيه هذا الجحود وهذه الصلابة الخسيسة الدنيئة المتوحشة فى كيان هارون ؟ ماذا أنا صانع .. كيف أعلن غضبى وشكرى ، وألمى وامتنانى ؟ ماذا أنا صانع ؟ .. لا أستطيع أن أفكر الآن .

— مختار .

— نعم .

— أرجو أن تمر على غدا بعد أن تصلى الفجر .

— أمرك .

وقام مختار عن مجلس الحاج حامد وخلت الحجرة به موجودا بلا وجود ، يكاد فؤاده أن يتوقف عن النبض .. صغرت الحياة أمام عينيه ولكن دعا ربه ألا يموت حتى ينزل ثورته على ابنه ، ويتقدم بشكره إلى أعتاب سعدون .. وظل هذا الدعاء يتردد فى كيانه وتنتفض به جوانحه وهو يقوم من مجلسه ويدلف إلى غرفته ، وتتلقاه زوجه فيهولها ما هو فيه من شحوب وغيظ ينتفض به وجهه وقد ورمت أعراق دمائه حتى لتوشك الدماء أن تنبجس منها .

— مالك ؟

— اتركينى ..

— أتركك .. كيف ؟

قال فى حسم :

— توحيدة ، اتركينى الآن .. وفورا .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمرك ..

— ولا أحد يدخل عندى .

— ماذا أقول لشهاب ؟

ـــ قولى له ما شئت ، ولكننى لا أريد أن أرى أحـدا .. أسمعت ؟

ـــ أمرك .

وخرجت وأغلق الباب بالمفتاح وألقى بنفسه على السرير ذاهلا تملأ المهانة نفسه يزحمها الغيظ والأسى ، وعيناه شاخصتان إلى الفراغ .

ومر به اليوم جميعا وهو على حاله هذا ، حتى لقد أبى أن يتناول طعاما فى يومه كله . والحاجة توحيدة وحفيدها حائران معذبان بالقلق لا يدريان مما يعانيه الشيخ من أهوال .

وكان كلما خرج من الغرفة ليتوضأ ويصلى يحاول شهاب أن يسأله عما به فيزجره فى عنف لم يعهده شهاب منه قبل ذلك مطلقا .. ويئست الحاجة توحيدة أن تعرف منه شيئا عما به .

وانقضى اليوم وشهاب يفكر أن يسافر فقد كان يظن أن جده غاضب عليه ، ولكن الحاجة توحيدة تنفى عنه هذه الفكرة بكل ثقة وترجوه ألا يترك جده وهو فى حاله هذا فيجد فى كلامها منطقا .. فربما كان جدى مريضا ولا يجوز أن يتركه خاصة وأن معه سيارة لعلها تكون ذات فائدة فيمكث فى غير رغبـة فى المكوث . وهو أيضا لا يحس برغبة فى الرحيل ، ولكنه لا يدرى

ماذا يصنع بيومه هذا الطويل . خرج إلى القرية وراح يتمشى بلا هدف بين الحقول . و لم يعدم أن يجد بعض من يعرفهم ويعرفونه من أبناء القرية يحادثهم ويحادثونه ، ثم ما يلبث كل منهم أن ينصرف إلى شأنه وينفرد به الطريق مرة أخرى وتهز نفسه الوساوس بين شعوره بالخجل مما صنع وبين ما يعانيه جده .

والحاجة توحيدة والهة حائرة تدور فى البيت بلا عمل ، وتصلى فلا تفلت سنّة ولا نافلة إلا أقامت صلاتها . ولكن الساعات بطيئات ثقيلة .. وحين عاد شهاب إلى البيت لم يستطع أن يتصل بينهما حديث ..

ويمر اليوم ويأتى الليل دون أن يذوق الحاج حامد لقمة فى يومه هذا .. هل أستطيع أن أطعم من مال الصدقة وأنا الذى عشت عمرى كريما على نفسى وعلى الناس ..

وكيف أستطيع أن أسيغ الطعام ، وكيف يقبله لسانى أو جسمى !. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك .

وتطرق الحاجة توحيدة غرفته تريد أن تنام ..

— نامى فى غرفة أخرى ..

وتذعن المسكينة هذا الإذعان الذى يعرفه ذلك الجيل ، والذى لا يتصور أن تكون الأمور إلا هكذا .. أمر من الرجل وطاعة من

الزوجة وبغير معرفة للأسباب ..

ويفغر الليل فاه المظلم يخيط به الحاج حامد ، ويظل يتقلب على فراشه . الموت أهون . ولكن لا .. يا رب العالمين لقد أطعتك عمرى كله ، اترك لى من الحياة فرصة حتى أسخط وأعلن سخطى على ابنى ، وحتى أشكر وأعلن شكرى لمن أكرمنى .

وفى تباشير الفجر قام الحاج حامد فتوضأ وأقام الصلاة ، وأحس وهو يقرأ الفاتحة أنه اقترب إلى السماء غاية القرب ، وأن أنساما من نسمات الملائكة تراوحه ، وأن وجيب قلبه أصبح تخشعا وحنينا ورحمة .. وراح الهدوء يسرى فى أوصاله شيئا فشيئا . وما أن ختم الصلاة حتى أحس نفسه خفيفا كملاك ، سعيدا جذلا يملأ الفرح نفسه والشكر لله يشيع فى جوانحه .. لقد ألهمه المولى عز وجل الطريق .. فإذا هو إنسان جديد كأنما لم يخلق إلا فى لحظته تلك . صلى النوافل وقام إلى دولابه وأخرج بضعة أوراق وسرعان ما وجد الورقة التى يبحث عنها ووضعها فى جيبه ، ثم انبعث إلى زوجته يصيح بها فى صوت جذل فرحان ..

— توحيدة .

وكانت المسكينة قد فرغت من صلاتها هى الأخرى بعد ليلة لم يعرف النوم إلى جفونها سبيلا .. صاح بها فى صوته الفرحان الملىء

بالبهجة ..

— أين أنت يا حاجة ؟

ودق فؤاد الحاجة فرحا .. اللهم أنك كريم يارب العالمين .. لقد عاد إلينا الحاج حامد .

— جائية إليك يا حاج الحمد لله على سلامتك ..

— الحمد لله حمدا يرضيه سبحانه .. هل شهاب نائم ؟.

— نعم يا كبدى ، لقد كان حاله بالأمس شر حال ، وأغلب الأمر أنه لم ينم إلا مع الفجر ..

— دعيه .. نائما ..وهاتى لنا الفطور . أشعر أننى سآكل ما فى المنزل .

— جاهز يا حاج .

وحين استقبل مختار قال له :

— هل أنت مشغول اليوم ؟

— لا .. تحت أمرك .

— أريد أن نذهب معا إلى الزقاريق .

— وماله ؟ هيا بنا ..

وذهبا إلى الزقازيق ، واستأجر الحاج حامد سيارة أجرة وطلب

إلى السائق أن يذهب به إلى الشهر العقارى ، و لم يملك مختار نفسه ..

ــ الشهر العقارى .. ماذا نفعل فى الشهر العقارى ؟

ــ سبحان الله يا أخى ماذا عليك لو انتظرت ؟ .. هل معك بطاقتك ؟ ..

ــ معى .

ــ عظيم .

وفى الشهر العقارى فوجىء مختار بالحاج حامد يوكله توكيلا خاصا لبيع بيته فى المنيرة ، وأن يقوم بكل الإجراءات التى تؤدى إلى بيع هذا البيت .. وقدم للمسجل ورقة ملكيته المسجلة للبيت ..

وفى دهشة قبل مختار التوكيل .. وعاد مع الحاج حامد إلى البلدة فى السيارة التى استأجراها ، وحين استقر بهما المقام قال الحاج حامد :

ــ أسافر معك إلى القاهرة .. اليوم أو غدا ونذهب إلى السمسار فى المنطقة ثم أترك لك الأمر كله . أنا صحتى لا تساعدنى والبركة فيك ..

ـــ ماذا تريد أن تصنع .. إن ابنك يقيم فى هذا البيت ..

ـــ وهل أحتاج إليك لتذكرنى بهذا ؟

ـــ ما تشوفه .. هل تريدنى فى شىء الآن ؟

ـــ أعد حقيبتك للسفر ..

ـــ حقيبتى ؟ هل سنبيت هناك .

ـــ إذا اقتضى الأمر .

ـــ وماله ؟ .. نزور آل البيت على الأقل ..

ـــ شيئا لله .. يا آل بيت النبى ..

ـــ السلام عليكم ..

وانصرف مختار على وعد منه أنه سيكون جاهزا للسفر حين يستدعيه الحاج حامد ..

وكان شهاب قد صحا من نومه وتناول فطوره .. ومكث ينتظر جده الذى بشرته جدته أنه أصبح فى خير حال ..

وحين رآه قادما لم يكن محتاجا ليسأله ، فقد كانت السعادة بادية على وجهه .

قال شهاب ..

ـــ لقد أخفتنا عليك البارحة خوفا شديدا ..

ـــ شدة وزالت .

وهومت سحابة من الأسى على وجه الحاج حامد .. شهاب ابن هارون . أتراه مثله .. هيهات إن أحدا لن يكون جاحدا جحود هارون .. وطالما شكا لى شهاب من عدم اهتمام أبيه به أو بأخيه .. لا .. الولد لاذنب له . وانجابت غمامة الحزن وعاد إلى حفيده ..

ـــ قل لى يا شهاب ، ماذا تنوى أن تعمل بعد أن نلت بكالوريوس الهندسة ؟

وصمت شهاب قليلا ثم قال :

ـــ أنا لم أفكر بعد والله يا جدى . إن كان الأمر لى لبحثت عن عمل لى بعيد عن شركات أبى ، ولكن هذا سيبدو أمرا غريبا وأنا لا أحب أن أعلن عدم اهتمام أبى بنا على الناس أجمعين . ما رأيك أنت يا جدى ؟ ..

ـــ أنا أفكر فى شىء آخر ..

ـــ شىء آخر ؟

ـــ نعم ..

ـــ فيم تفكر يا جدى ..

ـــ سأخبرك ..

ــ الآن ..

ــ ألم تفكر فى الزواج .

ــ والله لم أفكر فيه حتى الآن ..

ــ ولم لا ؟

وفكر شهاب قليلا ثم قال :

ــ فعلا ولم لا ؟

ــ هل تحس قلبك يميل إلى فتاة بعينها ؟ .

ــ تقصد أنى أحب .

ــ وما البأس ؟

ــ كنت أتمنى ، ولكن البيت الذى أعيش فيه ليس فيه مكان للحب وهذا بفضل أبى الذى صرف قلبه كله إلى المال .. ولا يتصور أننى وأخى وأمى نحتاج إلى شىء آخر غيره ..

ــ إذن فأنت لا تحب أحدا .

ــ لا ..

ــ ألا تفكر فى فتاة تصلح زوجة لك .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ أعتقد أن هناء ابنة خالتى بنت حلال وتصلح زوجة من

جميع الوجوه .

ـــ عظيم ! إنها فعلا فتاة عظيمة .

ـــ ولكن هل تظن أن أباها يقبل زواجها منى بعد الموقف المشين الذى رآنى فيه ..

ـــ لا تفكر فى هذا ، واعتمد على الله ثم علىّ ..

ـــ أطال الله عمرك ..

ـــ أمهلنى بضعة أسابيع ، وسأزوجك منها إن شاء الله .

ـــ هذا أمر يسير .

ـــ أمامى بعض أعمال أريد أن أنتهى منها ثم أتفرغ لزواجك ..

ـــ أمرك ..

ـــ أنا أريد أن أسافر إلى القاهرة ، وأنت محتاج أن تبقى هنا بضعة أيام تسترد فيها نفسك .. سأتركك مع جدتك ..

ـــ أنا فعلا أحتاج أن أبقى هنا بضعة أيام أخرى ..

ـــ وهو كذلك ..

* * *

لم يكن الوصول إلى السمسار بحى المنيرة أمـرا عسيرا ، فسرعان ما اهتدى إليه الحاج حامد ومختار . وقال الحاج حامد

للسمسار الحاج صالح الرويني :

ــ انظر إلى هذا العقد .

وقرأ الحاج صالح العقد .

ــ أمرك .

ــ أنا صاحب هذا البيت .

ــ هل هو خال من السكان ؟

ــ يقيم فيه ابنى بلا عقد ولا تنازل منى ولا ورقة تثبت حقه فيه .

ــ هل تتعهد بإخلائه ؟

ــ إذا وجدت أى صعوبة أذللها ..

ــ كم تريد ثمنا لهذا البيت ؟

ــ أنا أوجه إليك هذا السؤال ..

ــ من مليون ونصف مليون إلى مليونين .

ــ شيء واحد أريده منك ..

ــ أنا تحت أمرك .

ــ لا أريد المشترى أن يدخل البيت .

ــ هذا أمر صعب .

ـــ أنا حقيقة فلاح ، ولكنى أعرف الحال فى القاهرة الآن ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن المشترى لن يشترى البيت للإقامة فيه ، فليس هناك من يقبل أن يشترى بيتا قديما كهذا البيت بمليونين من الجنيهات للإقامة فيه ..

ـــ لعلك على حق ..

ـــ المهم هو الموقع والأرض ..

ـــ إذن أعطنى بضعة أيام ..

ـــ أسبوع مثلا ..

أنا رجل كبير فى السن، وقد سجلت هذا التوكيل لصديقى مختار.

وقال مختار :

ـــ أجىء إليك بعد أسبوع ..

ـــ إن شاء الله .

* * *

باع الحاج حامد البيت وسجل البيع فى عشرة أيام ، وأرسل المشترى إنذارا إلى هارون بإخلاء البيت الذى يقيم به بغير سند قانونى ..

ووقع الأمر على هارون وقوع الصاعقة ، ولم يكن تركه للبيت هو السبب فى حسرته وألمه وإنما إدراكه أن أباه غاضب عليه هذا الغضب الماحق .. وأحس كأن يدا من حديد تعتصر فؤاده .. ولكن قليلا ما اعتصرته .

وفى بضعة أيام كان قد استأجر بيتا آخر كبيرا مفروشا يقيم فيه حتى يدبر أمره ..

* * *

١٤

حين زار الحاج حامد سعدون فى بيته بادره سعدون بقوله :

ــ أعرف فيم جئت .

ــ مؤكد .

ــ أليس العقاب قاسيا ؟

ــ بل أقل كثيرا مما ينبغى ، لقد أعطيت هذا الولد أربعين فدانا يكسب منها الآن أكثر من ستين ألف جنيه ، أما كان ينبغى أن يحط فى عينه حصوة ملح ويعطينى أنا وأمه عشر ما يكسب من أرضى ؟

وصمت سعدون وأطرق لا يجد ما يقول .

ــ والألعن من الفلوس .. الابن الذى يجحد أبويه حتى لو لم تكن الأرض أرضهما ، ماذا يساوى فى الحياة ؟ أنا فقدت هارون فهو إنسان ... واستغفر الله أن يكون إنسانا ، هو كيان غير بشرى ليس له قلب .. والذى لا يعرف كيف يعامل أبويه لا يعرف كيف يعامل أبناءه .

ـــ هون عليك يا حاج حامد .

ـــ أنت الذى جعلت الحياة مقبولة منى ، فلولاك لأصبحت الدنيا بلا معنى .

وأى معنى يمكن أن يكون للحياة إذا خلت من عظماء أمثالك .

ـــ أرجوك يا حاج حامد ، أنا لم أصنع إلا ما يجب أن يصنعه الإنسان ..

ـــ لقد صنعت صنيعا لا يمكن أن يطالبك به أحد ..

ويقول سعدون فى خجل .. وكأنه يعتذر :

ـــ المسألة أهون من هذا ، لقد رأيت أننى كان ينبغى لى أن أقدم لحميدة ابنتى مبلغا يعينها على الحياة مثلما يفعل الآباء كلهم فى أيامنا هذه ، ولكننى وجدتها فى غير حاجة إلى ..

ويكمل الحاج حامد ..

ـــ فحولت المبلغ إلى أبى زوجها الذى ما زال ابنه على قيد الحياة ، والذى اعطاه أبوه أربعين فدانا ، والذى أصبح اليوم من أكبر اغنياء مصر وربما من أكبر أغنياء الدنيا .. هل تقدر الألم الذى أشعر به ؟

ـــ طبعا ..

ـــ لا .. وأرجو الله ألا تراه أبدا .. ولكنى يا سعدون رجل لم أترك فرضا وليس لى فى الدنيا إلا هارون ، فلماذا يعذبنى به الله هذا العذاب ؟ .

ـــ سبحان الله يا حاج حامد ، إن الله هو الذى يحاسبنا ولسنا نحن الذين نحاسب الله . ومن أدراك ماذا يعد الله لك من خير فى الدنيا والآخرة ؟ إن للسماء عدالتها الخاصة بها وليس من حق البشر أن يحاسبوها .

ـــ أستغفر الله العظيم ، والحمد لله سبحانه على كل ما أعطى وما لم يعط .. أستغفر الله .. الغرض ..

ـــ أى غرض ؟

ـــ كيف أشكرك ؟

ـــ بأن تنسى الأمر تماما ..

ـــ هيهات ... إن معى الآن مبلغا ضخما من المال ..

ـــ وماذا تريد أن تقول ؟

ـــ أعلم أنك سترفض منى أن أرد دينك .

ـــ وما دمت تعلم هذا ففيم تتكلم ؟

— سأرد دينك رغم أنفك ..

— كيف .. أيمكن هذا ؟

— نعم .. اقرأ هذه الورقة ..

وقدم إليه ورقة نظر فيها سعدون وبدت الدهشة على وجهه ..

— ما هذا ؟

— لا تندهش ..

— قيراطين أرض باسمى فى قريتنا .

— نعم .

— ما معنى هذا ؟

— معناه أننى اشتريت الأرض فى بلدك للبناء ، فأنا أعلم أنك بعت أرضك كلها وأرض زوجتك و لم يعد لك فى بلدكم شىء ، ولكنى أردت أن أجعل صلتك بها أكرم صلة ..

— كيف ؟..

— سأبنى فى هذين القيراطين جامعا باسمك ..

وطفرت الدموع إلى عينى سعدون ، وقال وهو يجهش بالبكاء ..

— هذا أكثر مما أستحق ..

ــ وهل نتحاسب ؟

ــ هذا أكثر مما استحق ..

ــ أتعرف الكلمة التى يقولها الناس شكرا لله ؟ لا لقد أردت أن أقولها بهذا المسجد الذى أبنيه باسمك ..

ومع البكاء الذى راح يعلو من سعدون لم يستطع أن يقول شيئا ، وقام الحاج حامد :

ــ السلام عليكم ورحمة الله .

* * *

١٥

لم يستطع حامد أن يكمل حديثه مع سعدون فى يومه هذا ، فتركه وذهب إلى الفندق الذى يقيم فيه هو والحاجة توحيدة . بعد أسبوع عاد إلى سعدون الذى بادره قائلا ..

ـــ أتعرف ماذا صنعت بى ؟

ـــ أنا ؟؟ أنا لا أصنع بك إلا الخير كل الخير .

ـــ هو ذاك .. لقد أحسست بما صنعته أنت أن الله غفر لى ما تقدم من ذنبى وترك لى الحرية فيما تأخر .. أرجو أن أكون كفئا للأمانة ..

ـــ أنت كفء لها إن شاء الله .

ـــ لم أتصور أن يقام باسمى مسجد وأظل أنا شاربا للخمر ..

ـــ الله أكبر ..

ـــ منذ تركتنى لم أذق نقطة خمر و لم أترك فرضا ..

ـــ اللهم لك الحمد والشكر ..

ـــ وسأسافر إلى الخارج فى أمريكا لأنظف دمائى مما لوثته بها من خمور .

ـــ على بركة الله . المهم .. لقد جئتك اليوم فى أمر يهمنى ويهمك ..

ـــ أنا إرادتك عندى أمر .

ـــ قم واطلب زوج ابنتك الدكتور أمجد .

ـــ وهو كذلك ، ودون أن أعرف فيم تريده .

وقام سعدون إلى التليفون ، ووجد أمجد بالبيت فطلب منه أن يأتى إليه .

وما هى إلا بضع دقائق حتى كان أمجد معهما ، ويقول الحاج حامد :

ـــ لم أشأ أن أفاتح سعدون بك فى هذا الأمر إلا أمامك ..

وقال أمجد :

ـــ أنا تحت أمرك يا عم الحاج ، فإننى أكن لك كل احترام ..

ـــ أريد أن أزوج ابننا شهاب من ابنتنا هناء .

وأرتج على دكتور أمجد ، وقال سعدون بعد ريث تفكير :

ـــ يا أمجد إن شهاب لم يصنع إلا ما يصنعه شباب كثيرون ،

وسوء حظه هو الذى كشفه .

وقال دكتور أمجد :

ــ كلنا خطاءون ، ولكن ألا نترك فرصة للزمن لننسى ..

وقال الحاج حامد :

ــ عقاب الزانى غير المحصن يختلف عن حد الزانى المحصن .. هل سأعلمك الشريعة يا دكتور ؟

ــ البشر لهم عاداتهم وقيمهم الخاصة ، وهى لا ترتبط بالحدود الشرعية ..

وقال سعدون :

ــ اذكر قول المسيح .

وقال دكتور أمجد :

ــ لا أستطيع أن أرميه بحجر ، فكلنا خطاءون .

وقال الحاج حامد ضاحكا ..

ــ أنت كنت فى أوربا ، أتريد أن تقول لى إنك كنت فيها ملاكا من السماء ؟

وضحك دكتور أمجد وأكمل الحاج حامد :

ــ نعم أضحك .. والله لو حلفت لى إنك لم تخطىء فى أوربا

ما صدقتك ..

وضحك ثلاثتهم وقال سعدون :

ـ أعرفت هناء بالحكاية ؟

وقال دكتور أمجد :

ـ وهل كان يمكن أن تخفى عنها ؟

وقال سعدون :

ـ وماذا كان تعليقها ؟

وقال دكتور أمجد :

ـ ابتسمت وقالت مسكين .

وناقشتها فيم تقول مسكين ؟ قالت : لقد انكشف شهاب هذا كل ما فى الأمر ..

وقال الحاج حامد فى سعادة :

ـ زادها الله عقلا .. هيه ماذا قلت يا دكتور أمجد ؟

ـ من جهتى أنا لا مانع .

وقال الحاج حامد :

ـــ طبعا تسألها وتسأل خالته أيضا ..

قال سعدون ..

ـــ طبعا خالته ستكون سعيدة ، ولكن اسمع يا أمجد ، اترك هناء لأسألها أنا ..

ـــ أمرك .

* * *

١٦

أيكون هذا حبا .. ومن أين لى بالحب وأنا لم أحس به إلا من أمى . أتراني أعرف الحب .. كل كائن حى يعرف الحب حتى الحيوانات .. ولكن هل حبى من ذلك النوع العاصف الذى لا يبقى ولا يذر .. هل هو هذا الحب الذى يجعل الإنسان قد تحول إلى نبض قلب ووجيب فؤاد بلا تفكير ولا تدبر .. لا أظن . كل ما أعرفه الآن أننى أريد أن أتزوج إلهام وأنها خير من يصلح لى ..

ولماذا لا ؟ أما حبى فقد بحت به لها و لم أجد منها استنكارا و لا رفضا وفى أول لقاء ..

ـــ إلهام ؟

ـــ نعم .

ـــ أريد ..

ـــ قل ماذا تريد ؟

ـــ أن نتزوج .

ـــ أكذب لو قلت لك أنك فاجأتنى .

ـــ إذن ؟

ـــ ألم تتعرف على جوابى بعد كل هذه المرات التى قابلتك فيها ..

ـــ إنه زواج . أن نصبح روحا واحدة فى جسدين متلاصقين . الأمر لا يصلح معه التعرف إنما لا بد من التأكد .

ـــ ولكن آباءنا تزوجوا بالأذن وحدها ، وربما تزوج بعضهم بالأذن والعين ، فما كانا ليلتقيا قبل الزواج وما كانا ليتعارفا ..

ـــ ربما تقصدين أجدادنا ، أما آباؤنا فقد أدركوا عهد التعرف ..

ـــ ربما .

ـــ لم تجيبى .

ـــ بل أجبت .

ـــ أريدها صريحة .

ـــ أنا موافقة .

ـــ الجديد فى عهدنا أن آخذك بين ذراعى وأنال قبلة ..

و لم ينتظر إذنها ..

رأى من الطبيعى أن يفاتح أمه قبل أبيه ..

ـــ ماما .

ـــ هيه .

ـــ أريد أن أتزوج .

ـــ هكذا .. أنت وشهاب فى وقت واحد .

ـــ هل هناك مانع ؟

ـــ بالطبع لا .

ـــ إذن ؟

ـــ طبعا تعرفت على العروس ، وأغلب الأمر اتفقتما .

ـــ هل عندك مانع ؟ .

ـــ أبوك رآنى مرة واحدة قبل الزواج ، و لم يسألنى رأيى .

ـــ هذا أبى .. إنه أمر يتفق تماما مع أخلاقه .. لقد تزوج بعقله وحده وبالنفع الذى سيعود عليه من الزواج بك .

ـــ ولد .. أهذا أسلوب تتكلم به عن أبيك ؟

ـــ أنا أصفه .. هل عيب أن أصفه ..

ـــ اسكت .. اسكت أحسن قل لى من عروسك ؟

ـــ لا أظن أنك تعرفينها .. فقد كانت زميلتى فى الكلية

وليست من بنات أصدقائكم ..

— عرفنى بها ..

— أتعنين أن تريها ؟

— قل لى أولا من هى وابنة من ، وبعد ذلك أذهب أنـا لأراها ..

— اسمها إلهام وجدى ، هل يعنى لك هذا الاسم شيئا ؟ ..

— طبعا لا ، إلا إذا أخبرتنى من وجدى هذا .. وما يعمل .. و ..

— لا .. لا .. اطمئنى تماما من هذه الناحية ، فإنها من أسرة جديرة بكل الاحترام . وأبوها موظف كبير ، وجدها من كبار الأغنياء .. طبعا هذا الغنى يهم أبى كل الأهمية .

— إذن فعلى بركة الله .

وحين جاء هارون عرف من حميدة رغبة ابنه ، وسأله :

— من وجدى والد إلهام يا فائق ؟ ..

— اسمه وجدى زين الدين ، وجده ..

وفوجىء فائق بأبيه وقد أصبح إنسانا آخر . تقلص وجهه وعلت الكشرة ملامحه وعلا نبض قلبه حتى ليكاد فائق أن يسمعه ،

وصاح يابنه :

ــ تقول من ؟

ــ وجدى زين الدين .

ــ ابن عبد المجيد زين الدين ؟

ــ نعم .

ــ ألم تجد فى الدنيا كلها إلا حفيدة عبد المجيد زين الدين ؟

ــ وما عيب وجدى زين الدين يا بابا ؟

ــ أبوه يطيق العمى ولا يطيقنى .

ــ لماذا ؟

وصمت هارون .. وماذا يقول .. فكر قليلا ثم قال :

ــ خصومات قديمة فى السوق .

ــ وهل هذه الخصومات تحول بينى وبين زواجى بحفيدته ..

ــ نعم أنا أرفض .. لن أطلب من ابن عبد المجيد زين الدين يد ابنته ولو انطبقت السماء على الأرض ..

أحس فائق فى هذه اللحظة أنه إذا كانت رغبته فى الزواج من إلهام رغبة عابرة ليس يفجعه ألا تتم ، فقد أصبحت الآن رغبة عارمة لا بد لها أن تتم . فليس أبوه عنده بالشخص الذى يثق فى

أسباب خصومته أو صداقته فهو عنده ظنين . علاقاته جميعها تعتمد على المال وحده ، ولن أجعل المال يتحكم فى رغباتى أنا الآخر وأصبح نسخة أخرى من أبى الذى لم أر منه أنا وأخى لحظة اهتمام بأمورنا . ولولا أن الله أراد لنا الفلاح ما فلحت ولا فلح شهاب .. ما رأيك يا هارون بك أننى لن أتزوج إلا من إلهام مهما يكن رأيك فى جدها ومهما تكن علاقاتك به .

وكان وجه حميدة شاحبا فقد أحزنها ما فعله زوجها ، وأحست فى عينى فائق إصراره أن يمضى في طريقه غير عابئ برأى أبيه . وقام فائق وقصد إلى حجرته مغضبا ، ونظر هارون إلى زوجته .

ـــ فى ملايين الأرض كلها لم يجد إلا حفيدة عبد المجيد زين الدين ..

ـــ يا هارون أنت خصومك فى السوق كثيرون ، وحرام أن تصنع بالولد ما صنعت ..

ـــ أموت ولا أذهب إلى بيت عبد المجيد زين الدين .

ـــ أليس لأبنائك أى حق عليك ؟

ـــ أليس لى أنا أى حق على أبنائى ؟

ــ متى سألت عنهم حتى يكون لك حق عليهم ؟

ــ هل أخرت عنهم شيئا ؟

ــ أولادك غيرك يا هارون .

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ المال عندهم ليس كل شيء .. متى أحسست بهم ؟ متى همك أمرهم ؟ حتى حين كان واحد منهم يمرض لم تكن تعنى به ..

ــ ألا أحب أولادى ؟ ..

ــ هارون ربما كانت هذه أول مرة أسمع منك فيها كلمة الحب ..

ــ أعوذ بالله .. إلى هذا الحد ..

ــ لو عرفت الحب ماكنا اليوم فى هذا البيت .

وعلت حمرة الغيظ وجه هارون وأطرق هنيهة ، تذكر فيها كل ما كان منه نحو أبيه وما كان من أبيه نحوه ، وقام عن مجلسه متجها إلى غرفته ، وانحدرت بعض دمعات من عينى حميدة جففتها ثم قامت إلى التليفون وطلبت أباها ..

ــ بابا هل أنتم فى البيت بعد الظهر ؟

ـــ أنا موجود ولا أدرى إن كانت والدتك ستخرج أم لا ..

ـــ أنا أريدك أنت .

ـــ أهلا وسهلا .

* * *

روت له ما وقع من هارون ، وحين بلغت من القصة اسم عبد المجيد زين الدين صاح سعدون ..

ـــ قلت من ؟

ـــ عبد المجيد زين الدين .. أتعرفه ؟

ـــ سبحانك يا رب وما أعجب تصريفك ! اغفر يا رب !

ـــ ماذا يا أبى ؟

ـــ طبعا رفض هارون .

ـــ منذ سمع اسم عبد المجيد هذا .. أهو رجل سيئ يا بابا ..

ـــ بل من أحسن الناس وأشرفهم وأكرمهم وأكثرهم محافظة على كرامته ، وبينى وبينه حب كبير وتقدير متبادل ربما من الصعب أن يكون بين اثنين فى الدنيا .. إنه من أقرب الناس إلىّ وأنا من أقرب الناس إليه ..

ـــ صحيح والنبى ؟

— صلى الله عليه وسلم .. بل أقل من الصحيح . إنه بالنسبة لى أكثر من أخ ..

— شرح الله قلبك يا بابا ، وربنا يبقيك ويطيل عمرك .

— اذهبى إلى بيتك ولا تفاتحى هارون فى شىء .. واتركى الأمر كله لى ..

* * *

أدرك هارون فيم يريده حموه حين طلب إليه أن يمر به ، ولم يكن مرتاحا إلى هذا الاستدعاء ولكنه لم يستطع أن ينكص عن الذهاب إليه . وقال سعدون :

— أمرك عجيب يا هارون ..

— حسبت أنك أول من يجد لى العذر فى رفضى أن يتزوج فائق من حفيدة عبد المجيد زين الدين ..

— يا أخى أنت الذى اعتديت عليه .

— ليس المهم من المعتدى .

— أعرفك أنك ليس لك فى الشعر ، ولكن يحضرنى بيت لعزيز أباظه لا بد أن أرويه لك يقول :

وبغوا فلما قلت يا نفس اصبرى غضب الظلوم وعوتب المظلوم

— أتحسب أن عبد المجيد سيرضى عن هذا الزواج ؟

— هذا ليس شأنك .

— أعرف ما بينكما من حب ..

— فاترك الأمر لى ..

— كل ما أرجوه منك ألا أحضر الفرح .

— كيف هذا ؟ .. وماذا يكون موقف عائلة العروس ؟

— الحقيقة الموضوع كله ثقيل على نفسى .

— اسمع ، ما رأيك أن نزوج الولدين فى يوم واحد ؟

وفكر هارون لحظات ثم قال :

— ولم لا والله فكرة .. ولكنى لا أريد أن أسلم على عبد المجيد ..

— يا سيدى ولا يهمك ، وما أظن أنه سيحرص على السلام عليك ..

— إذن نتوكل على الله ..

* * *

طلب سعدون التليفون وأجابه عبد المجيد زين الدين ..

— هل أنت خارج أم ستبقى بالبيت ؟

— أنا تحت أمرك ، أتحب أن أجىء إليك .

— لا ، فى هذه المرة لا بد أن أجىء أنا إليك .

— أهلا وسهلا ..

— الآن ..

— أهلا وسهلا ..

* * *

— الكلام الذى سأقوله أقوله بما بيننا من حب ..

— خيرا إن شاء الله .

— أنا الآن مدين لك بما صنعت معى ..

— أستغفر الله ، بل سأظل أنا مدينا لك طول عمرى .

— لا داعى أن نتعازم على الديون .. فلكل منا تقديره الخاص بما صنع الآخر .. أنا أقدر أننى أن المدين لك ، وقد جئت لأزيد من مقدار هذا الدين أضعافا مضاعفة .

— أنت تأمر فى مالى وأبنائى كيف شئت .

— أتمسك بكلمة أبنائك هذه .

— لبيك .

— أريد ابنتك إلهام ..

— تقصد طبعا حفيدتى .

— شوقى قال عن الحفيد ولدته مرتين .

— تعبير جميل .

— إنه شوقى .

— لمن تريد إلهام ؟

— جئنا للأمر الصعب .

— ليس معك أمر صعب .

— لحفيدى الذى ولدته مرتين .

— يا ساتر يا رب .

— ألم أقل لك ؟

— طبعا لو كان المقصود ابن وجيدة ما احتجت إلى هذه المقدمة الطويلة .

— ليس هذا بغريب عن ذكائك .

— أترضى لى أن ازوج ابنتى من ابن هارون ؟

— لا . ولكن أرضى لك أن تزوج ابنتك من حفيد سعدون ..

— غلبتنى . لقد أقسمت ألا أمد يدى لهارون أبدا .

ـــ .. أنا الذى سأقرأ معك الفاتحة ..

ـــ وأبلغه أننى لن أصافحه ..

ـــ من هذه الناحية لا تخف ..

ـــ توكلنا على الله ..

ـــ نقرأ الفاتحة ..

ـــ ألا أسأل الأب والأم والعروس ..

ـــ أما عن العروس فهى زميلة فائق فى الكلية ، ولا بد أن الأمور بينهما مستقرة فى أمان الله .. أما الأبوين فهذا حقك وحقهما ولو أننى أعتقد أنهما لن يمانعا مادمت أنت قد وافقت ..

ـــ أنت على حق ، ولكن من ناحية الشكل أنت تعرف أبناءنا فى أيامنا هذه يحبون أن يشعروا أنهم أصحاب الأمر والنهى فى بيوتهم .

ـــ أفوت عليك بكرة ..

ـــ هل أنت متعجل ؟

ـــ يا رجل يا طيب ألا تعرف من المتعجل ؟

ـــ أهلا بك بكرة إن شاء الله ..

* * *

اقيم الفرح للأخوين وحرص كل من زين الدين وهارون ألا يتصافحا ، و لم يلحظ أحد ما بينهما من جفاء إلا العالمون بما بينهما من خصومة . وانقضت الليلة على أحسن ما تكون ، وحضر الفرح بإلحاجِ من الحفيدين الحاج حامد والحاجة توحيدة .

وبالطبع كانت هناك شقة فاخرة لكل من العروسين اختارها الأخوان وزوجتاهما فى عمارة واحدة لم يذهبا إليها بعد الفرح ، وإنما سافر شهاب وهناء إلى باريس لقضاء شهر العسل ، وسافر فائق وإلهام إلى جنيف ، وقد كان هذا أول سفر لأربعتهم إلى خارج مصر .

* * *

١٧

عاد الأعراس إلى القاهرة بعد شهر العسل ، وبدأت الحياة تأخذ مجراها الطبيعي بين كل من الزوجين وحمدوا جميعا ما وفقهم الله لهم من اختيار . وتجاوز كل منهم الأيام الأولى ذلك الاختلاف الذى تتضح معالمه مع الحياة الجديدة ، ووجد كل من الأعراس الأربعة أنه قريب فى خلقه وتفكيره مع شريكه أو شريكته .. فقد كان كل من الأربعة رضى الخلق سمحا لا يحب التعقيد .

وكان من الطبيعى أن تكون الحياة بين هناء وشهاب أكثر يسرا فكل منهما يعرف الآخر منذ ولد ، فما بعجيب أن تتفق بينهما الميول والمآرب والرغبات .

أما فائق وإلهام فقد وجدا بعض الصعوبات فى الأيام الأولى ، ثم ما لبثت الحياة أن لانت بينهما وتجاوز كل منهما عما لا يتفق وعاداته فقد كانت المبادئ الأساسية فى خلق كل منهما واحدة .

عاد الزوجان والزوجتان سعداء جميعا . وبدأ شهاب يعمل

مهندسا فى شركة أبيه كما عمل فائق محاسبا فيها أيضا ، إلا أن الأخوين حين انفرد بهما المكان فى صالون شهاب الفاخر كان بينهما حديث ..

— ما رأيك يا شهاب هل سنظل نعمل فى شركة أبينا ؟

— أنا معك .. فأنا لا أستطيع أن أحقق ذاتى فيها .

— ولا أنا .

— نعمل حتى يجد كل منا مكانا آخر يرضيه فأنا لا أحب الفراغ ..

— نحن متفقان .

وعلى هذا الرأى استقر بهما الأمر ، فكان كل منهما يعمل حتى لا يواجه الفراغ ، وكان كل منهما يبحث عن المكان الذى يجد نفسه فيه .

* * *

حملت إلهام ولم تحمل هناء ، ومرت ثلاثة أشهر دون أن تحمل ، ووجد شهاب أمه تسأله عشرات المرات ..

— هل آن لنا أن نفرح بابن لك أو ابنة كما سنفرح بمولود فائق .. وأمام هذه الأسئلة المتلاحقة لم يجد شهاب بدا من أن

يذهب إلى طبيب ليتأكد أن ليس به ما يمنع الإنجاب . وواجهته الحقيقة المريرة .. إنه لا يصلح للإنجاب أبدا ولا يصلح معه علاج ، فإن الذى يعانيه مرض خلقى لا يمنعه من المعاشرة الزوجية الطبيعية ولكن يمنعه من الإنجاب ..

وقع الخبر على شهاب موقعا عنيفا .. وعاد إلى البيت وهو يجاهد نفسه جهادا شاقا ألا يبدو عليه ما يعانيه من ألم .. سبحانك ربى لماذا أكون شجرة جافة بلا ثمار ؟ حسبى الله ونعم الوكيل !

ادعى الإجهاد وذهب إلى فراشه وكأنه سينام ، ولكن النوم لم يمس جفونه بطول الليل ، وهناء تحس أنه يعانى شيئا يخفيه . وفى الصباح ترك فراشه مبكرا وأحست به هناء فلحقت به ، وعلى مائدة الإفطار سألته :

ـــ ماذا بك يا شهاب ؟

ـــ ما رأيك أن نزور جدى فى البلدة إننا لم نزره منذ رجعنا من باريس .

ـــ لا مانع عندى ، ولكن لماذا لا تقول لى ماذا بك ؟ لا تقل الإجابة البلهاء لا شىء .. فإن يكن زواجنا منذ شهور فإن معرفتى بك منذ بدأنا نعى ما حولنا أنا وأنت ، فإنت ابن خالتى ..

— حين نعود من عند جدى سأخبرك .

وسافرا إلى الحاج حامد ، ورحب بهما الجدان ترحيبا شديدًا . وأدرك الحاج حامد أن حفيده يعانى مأساة يحاول أن يتكتمها . فما إن خلت بهما حجرة الاستقبال حتى نظر الجد إلى حفيده نظرة طويلة أدركها شهاب وقال ..

— نعم .

— فقل ما بك .

— أنا عاجز عن الإنجاب ..

— عاجز عن الإنجاب أم عن المعاشرة الزوجية .. آه نسيت أنت طبعا غير عاجز عن المعاشرة ..

وابتسم شهاب فقد أدرك أن جده تذكر حادثة الآداب التى مر بها ، وقال شهاب :

— الحيوانات الصالحة للإنجاب معدومة تقريبا ..

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأطرق الحاج حامد قليلا ثم قال :

— أكان يسعدك أن تأتى بابن يصنع بك ما صنعه أبوك ؟

— أنت تعرف يا جدى أننى موفور المال والحمد لله ..

ـــ وهل يتمثل الجود فى المال فقط يا شهاب ؟

وصمت شهاب قليلا ثم قال :

ـــ لا .. طبعا ..

ـــ لا أحد يعرف أين السعادة ، وإن يكن سبحانه قال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ فهو سبحانه أيضا قال ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ الله وحده يعرف برحمته أين يكمن الخير لعباده .

ـــ فإذا رضيت أنا فما ذنب هناء .

ـــ أخبرها وخيرها .

ـــ طبعا لن تقبل الطلاق من أجل هذا .

ـــ هذا هو الأغلب ..

ـــ هل أطلقها ؟

ـــ وهل دخلت إلى قلبها لتعرف أى الأمرين أحب إليها أن تبقى معك بلا أولاد أم تتزوج من غيرك لتنجب .. ألا يجوز أن يكون طلاقك لها أشد مرارة عندها من عدم الإنجاب ؟

ـــ وكيف أدرى ؟

ـــ تدرى من معاملتها لك ومعاملتها للحياة ، فاصبر

ولا تتعجل .

ـــ أمرى إلى الله .

* * *

وفى الطريق إلى القاهرة خطرت برأس شهاب فكرة أنس إليها ووجد فيها الخلاص من حيرته .. حاولت هناء أن تعرف منه ما يشغله ولكنه أصر على الكتمان و لم تفز منه إلا بجملة واحدة وهما يقتربان إلى القاهرة . بعد أن ومضت هذه الفكرة فى خاطره واطمأن إليها .

ـــ بعد وصولنا بساعة ستعرفين كل شىء .

بلغا القاهرة وأنزل الخدم الحقائب وقال لها شهاب :

ـــ سأذهب إلى مشوار سريع وأعود حالا ..

ما هى إلا بعض الساعة حتى كان شهاب جالسا مع زوجته ، وصمت قليلا وهى تتحرق شوقا لتعرف ما يعانيه زوجها ..

ـــ أخرج شهاب من جيبه ورقة وأعطاها لهناء وهو يقول :

ـــ اقرئى هذه .

وقرأت وتولاها الذهول ..

ـــ ما هذا ؟

ــ ألم تقرئي ؟

ــ لماذا ؟

ــ لأنى عرفت من الطبيب أننى غير قادر على الإنجاب .

ــ ومعنى هذا أن تكتب هذه الورقة .. ألا تسألنى ؟

ــ أعرف ما ستجيبين به .

ــ إن تصرفك تصرف فارس شريف ، وأنا أقبل ما صنعت لسر واحد لا تعرفه أنت ، وأعرفه أنا لأنى درست القانون ..

ــ ما هو هذا السر ؟

ــ أن إعطاء العصمة لى لا يمنعك حقك فى الطلاق أنت أيضا حين تشاء . فأنت لم تتنازل عن حقك فى الطلاق كما يظن عامة الناس وأفلام الشاشة ، وإنما معناه فقط أنك أشركتنى معك فى الاختيار .. أنت رجل عظيم .. وطظ فى الأولاد .

وطفرت دمعتان من عينيها استقبلهما بكاء عالى النشيج من شهاب كأنه يطلق به كل ما عاناه فى هذه الأيام . وقامت الزوجة واحتضنت زوجها وراحت تربت ظهره فى حب وحنان وكأنها تعلن إليه إصرارها على الحفاظ عليه .

* * *

١٨

كان يوما مشهودا يوم ولادة إلهام . فقد كانت الولادة متعسرة ولم يكن الطبيب قد جاء بعد ولم يكن بالمستشفى الخاص الذى تلد فيه طبيب متخصص . ودق التليفون فى المستشفى ليعلنهم طبيبها أنه فى القبة وليس لديه سيارة ولا يستطيع العثور على سيارة أجرة ودون ريث تفكير قام فائق ..

ـــ أنا ذاهب إليه ..

وأسرع إلى سيارته ..

إنه الأجل المحتوم .. كانت اللحظة التى قدرها الله لصعود فائق إلى السماء ترتقبه فى الطريق .. كيف ؟ لا يهم .. إنها حادثة مثل كل الحوادث التى يلاقى فيها العباد ربهم ..

* * *

نزل الخبر على الجميع كما ينبغى أن ينزل ... إنها الفجيعة التى لا ينتظر أحد أنها ستنزل به وهى أقرب إليه من حبل الوريد .. إنها

المصيبة التى يظن الناس جميعا أنها قد تقع للآخرين ولا يمكن ولا ينبغى ولا يجوز أن تقع بهم .

* * *

عرف هارون الحزن كما لم يعرفه فى حياته قط واضطربت به الحياة حتى لقد زهد فى المال وهو المال . ومرت به أيام لا يدرى عنها إلا أنها طويلة طويلة لا تنتهى . قابع هو فى بيته لا يريد أن يرى إلى أعماله وأمواله ، ولا يشتهى أن يسمع عنها ذكرا .

وفى يوم صحا من الفجر بعد نوم هالع كئيب ، وركب سيارته وقال لسائقه ..

ـــ اذهب إلى أبى فى البلدة ..

* * *

وحين استقبله أبوه ارتمى بين أحضانه باكيا بكاء مريرا فيه اعتذار وفيه حزن وفيه رجاء جار بطلب الغفران ، وظل على حاله فترة لا يدرى أطالت أم قصرت . والحاج حامد تنهمر من عينيه الدموع وهو يربت ظهر ابنه لا يدرى أهو بهذه الدمعات يبكى حفيده الذى مات أم يبكى ولده الذى عرف الفجيعة فى معناها السفاك القاتل ، أم يبكى أيامه هو التى طالت حتى تشهد ما

يشهده فى هذه اللحظات ..

وحين استقر بهما المقام تبين هارون أن سعدون كان قد سبقه إلى أبيه ووجد الدموع على خديه سجاما وصمت ثلاثتهم .. ثم تكلم سعدون أخيرا ..

ـــ لقد أسمت إلهام الولد حامد .

وبكى الأب والجد ثانية وقال سعدون :

ـــ لكل سحاب حزن بريق أمل يا حاج حامد .

ـــ الحمد لله .

ـــ يا حاج حامد أنت تستحق أن يكرمك الله ، وقد أكرمك بابن لحفيدك ومن يدرى ماذا يدخر لك فى السماء ؟

وجمع حامد نفسه ليقول فى أسى وامتثال لأمر الله .

ـــ الحمد لله .. الحمد لله على ما أخذ ، والحمد لله على ما أعطى ..

تمت

تمت بحمد الله فى الساعة ٢,١٠ من يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٩٢ بمكتبى بمجلس الشورى .

رقم الإيداع ٧١٧٤ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى 3 - 0762 - 11 - 977